

مارغريت دوراس

#31

موديراتو كانتابيل

11.10.2018

ترجمة وتقديم

نهاد التكرلي

نأرونة

رواية

مارغريت دوراس

موديراتو كانتابيل

ترجمة

نهاد التكرلي



هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

Moderato Cantabile

لمارغريت دوراس Marguerite Duras

الصادرة لأول مرّة عام 1958

المترجم : نهاد التكرلي

الطبعة الأولى : 1972. الجمهورية العراقية، وزارة الإعلام

الطبعة الثانية : 2016 . دار أزمنة، عمّان، الأردن

أزمنة ®

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252

شارع وادي صقرة ، عمارة الدوحة ، ط4

E.MailLinfo@azminah.com

Website:http://www.azminah.com

تصميم الغلاف: أزمنة (إلياس فركوح)

التنضيد والإخراج الداخلي : أزمنة (إحسان الناطور، نسرين العجو)

تاريخ الصدور : كانون الثاني/ يناير 2016

مرجريت دوراس

كاتبة فرنسية، ولدت في الهند الصينية عام 1914. أمضت طفولتها ويفاعتها هناك، ثم لما بلغت السابعة عشرة جاءت إلى باريس لمتابعة دراستها. ساهمت في حركة المقاومة ولم تنقطع أبداً عن الاهتمام بمشاكل العصر السياسية والاجتماعية.

أهم قصصها: (سدّ ضد المحيط الهادئ، 1950) وهي قصة مفعمة بذكريات طفولة شاقة و(بحار جبل طارق، 1952) و(خيول تاركينيا الصغيرة، 1953) و(حديقة الميدان، 1955) و(موديراتو كانتابيل، 1958) و(الساعة العاشرة والنصف من إحدى أمسيات الصيف، 1960). كتبت سيناريو فلم (هيروشيما، حبيبتي) الذي أخرجه آلان رينيه عام 1959، وفلم (غياب طويل) الذي أخرجه هنري كولبي عام 1961، ثم نشرت تباعاً قصصها الباقية: (بعد ظهر السيد أنديسماس، 1962) و(العاشقة الإنكليزية، 1967) و(قالت: التدمير، 1969). كتبت بعض المسرحيات أهمها (قناطر سين وواز، 1960).

التفرد الذي يتميز به عالمها القصصي جعل البعض يعتبرها من زعماء «القصة الجديدة»، إلا أنها في الحقيقة لا تنتسب إلى هذا الفن في كتابة

القصة. إنها تكتب كما تحسّ، وهي لا تهدف إلى إثبات نهجٍ أدبي معين بل تريد إلقاء الضوء على نطاق خاص من الوجود. ونحن لا نجد لديها إلا نظريات قليلة لكن كتبها تفيض بالإنسانية. تدور مؤلفاتها حول قطبين يتلاقيان من دون تناقض. فقصصها الأولى (كسدٌ ضد المحيط الهادئ) و(بحار جبل طارق) تؤكد نزعة واقعية جديدة وتذكرنا بقصص همنغواي أو سيزار بافيز، أي أن العالم المحسوس يشغل فيها مركز الصدارة، كما أن هنالك حكاية محدودة واضحة المعالم تقدم لنا خلال كل قصة. إلا أن مرجريت دوراس، ابتداء من قصتها (خيول تاركينيا الصغيرة)، توجهت نحو أدب أكثر تجريداً وأكثر اصطناعاً وتركيباً. فقصصها في هذه المرحلة الثانية تتجرد من كل تماسك مادي، وتقفز تقريباً من الشخصيات لتحكي لنا مغامرة فريدة وحيدة هي في الغالب مغامرة حب وليد لا يبلغ الاكتمال، وهو دائماً حب بلا غد.

والشخصيات القليلة التي تقدم لنا في كل قصة لا تتصف بأية صفات بطولية، وهي في الغالب لا اسم لها، كما أن حركاتها وأقوالها لا تؤدي إلى نتيجة ولا تفصح عن أفكارها ومشاعرها. وهذه الخصائص التي تتصف بها قصص مرجريت دوراس في مرحلتها الثانية تنعكس في أسلوبها أيضاً. فهو أسلوب متفكك وغامض لكنه في غاية الدقة. جمل قصيرة سريعة لا تهاب التكرار، ولا مخالفة القواعد النحوية، وهو في نفس الوقت أسلوب متواضع لا تزويق فيه، ونحن نشعر أثناء القراءة بأن الشيء الجوهري لا يكمن فيما قيل بل فيما سُكت عنه. لكن المؤلفة، رغم هذا الأسلوب المتزهد، تصل إلى درجة كبيرة من الصفاء والدقة والقوة في التعبير.

من بين قصص مرجريت دوراس آثرنا ترجمة قصة «موديراتو كانتابيل» وتقديمها إلى القراء العرب، لأنها في نظرنا خير نموذج لأسلوبها في كتابة القصة... عنوان القصة «موديراتو كانتابيل» مصطلح من مصطلحات الموسيقى ويعني «رَسْلاً وشَدْواً»، أي أن يكون الأداء بحركة معتدلة وأثناء الغناء. وقد تحاشينا ترجمة هذا العنوان لأنه مصطلح عالمي، ولأن سياق القصة يتطلب ذلك كما سيلاحظ القارئ أثناء قراءتها .

المترجم

1

سألت السيدة:

ـ هل لك أن تقرأ ما كتب في أعلى توليفتك؟

قال الطفل:

ـ موديراتو كانتابيل.

أكدت السيدة على هذا الجواب بضربة من قلمها على ملامس البيانو. إلا أن الطفل بقي ثابتاً مديراً رأسه نحو التوليفة.

ـ وماذا تعني عبارة موديراتو كانتابيل؟

ـ لا أعرف.

تنهدت امرأة جالسة على بعد ثلاثة أمتار من هناك واستأنفت السيدة:

ـ هل أنت متأكد بأنك لا تعرف ماذا تعني موديراتو كانتابيل؟

لم يجب الطفل وأطلقت السيدة صرخة عجز مكتومة وهي تضرب من جديد بقلمها ملامس البيانو.

لم يطرف للطفل بصر واستدارت السيدة قائلة:

ـ مدام ديباريد، أي طفل عنيد تملكين؟.

قالت مدام ديباريد وهي تتنهد ثانية:

ـ كأنني لا أعرف ذلك!

كان الطفل وحده الذي تذكر، وهو لا يزال ساكناً غاض الطرف، بأن المساء انفجر قبل قليل ولقد ارتجف لذلك.

ـ قلته لك في المرة الأخيرة وقلته لك في المرة قبل الأخيرة وقلته لك مائة مرة. هل أنت متأكد بأنك لا تعرف ذلك؟

لم يجد الطفل أن مصلحته الإجابة. وتأملت السيدة من جديد الموضوع الماثل أمامها فازداد هياجها. قالت آن ديباريد بصوت هامس:

ـ ها هي تبدأ من جديد.

واصلت السيدة قائلة:

ـ في الحقيقة. في الحقيقة أنك لا تريد قول ذلك.

تأملت آن ديباريد أيضاً هذا الطفل من قدميه حتى رأسه ولكن بكيفية تختلف عن السيدة.

وصرخت السيدة:

ـ ستقول ذلك في الحال.

لم يُبدِ الطفل أي استغراب واستمر لا يجيب. عندئذ ضربت السيدة للمرة الثالثة ملامس البيانو وكانت الضربة من الشدة بحيث انكسر القلم، إلى جانب يدي الطفل تماماً. كانت هاتان اليدان نصف مفتوحتين مدورتين ما تزالان حليبيتي اللون وقد بقيتا في انطوائهما على نفسهما لا تتحركان.

سمحت آن ديباريد لنفسها أن تقول مع شي من التهيب:

ـ إنه طفل مشاكس.

وأدار الطفل رأسه نحو هذا الصوت، نحوها، بسرعة لمجرد التأكد من وجودها ثم استأنف جلسته كأنه موضوع جامد إزاء التوليفة وبقيت يداه مغلقتين.

قالت السيدة:

ـ لا أريد أن أعرف يا مدام ديباريد عما إذا كان مشاكساً أم لا. مشاكس أم لا، يجب أن يطيع وإلاّ.

في الفترة التي أعقبت هذا الكلام نفذ صخب البحر من النافذة المفتوحة تصاحبه، بصورة مخففة، ضوضاء المدينة الغارقة في أوج بعد ظهيرة هذا الربيع.

ـ مرة أخيرة. هل أنت متأكد بأنك لا تعرف ذلك؟

مرّ زورق بمحرك في إطار النافذة. وبصورة غير محسوسة تحرك الطفل رغم بقائه مستديراً نحو توليفته ـ لم تلحظ ذلك سوى أمه ـ واستمر هكذا كأن الزورق يمرّ في دمه.

سُمع الخرير الصامت للمحرك في المدينة كلها، خاصة وأن زوارق النزهة كانت نادرة للغاية، وصبغ السماء كلها اللون الوردي الذي فاض به النهار المنتهي. وفي موضع آخر، على ضفة البحر، كان هنالك أطفال آخرون قد توقفوا عن المسير وهم ينظرون.

ـ هل أنت متأكد حقاً. مرة أخرى، هل أنت متأكد؟

ومرّ الزورق مرة أخرى.

دهشت السيدة لهذا القدر من الإصرار. خفّ غضبها وشعرت باليأس لقلة الاهتمام الذي يوليها إياه هذا الطفل الذي كان بمقدروها مع ذلك أن تضطره إلى الكلام. وبدا لها فجأة عقم مصيرها فتأوهت قائلة:

ـ يا لها من مهنة، يا لها من مهنة، يا لها من مهنة!

لم تعلق آن ديباريد على كلامها لكن رأسها انحنى قليلاً وكأنها توافقها على ما تقول.

كان الزورق قد انتهى أخيراً من عبور إطار النافذة المفتوحة. وارتفع صخب البحر بلا حدود في صمت الطفل.

ـ موديراتو؟

فتح الطفل يده وحركها وحك برفق ربلة ساقه. كانت حركته رشيقة ولعل السيدة اعترفت ببراءته. بعد أن حك ساقه قال:

ـ لا أعرف.

بلغت ألوان الغروب فجأة درجة من الروعة بحيث تغيرت بسببها شقرة هذا الطفل. وقالت السيدة بشيء أكثر من الهدوء.

ـ إنه سهل.

وتمخظت طويلاً. قالت آن ديباريد بشيء من الجذل مع ذلك:

ـ أي طفل أملك! أي طفل عندي هنا! وكيف حدث أنه جُبل على مثل هذا العناد.

لم تجد السيدة أن من المناسب التعليق على هذا القدر من الخيلاء، فقالت للطفل:

ـ هذا يعني. ـ ثم بلهجة المغلوبة على أمرها ـ للمرة المائة هذا يعني: رَسْلاً وَشَذْواً.

قال الطفل:

ـ رَسْلاً وَشَذْواً.

التفت السيدة إلى الوراء:

ـ آه! يجب أن أتذرع بالصبر.

فأكدت آن ديباريد ضاحكة:

ـ إنه فظيع. عنيد كالعنزة وفظيع.

قالت السيدة:

ـ ابدأ من جديد.

ولكن الطفل لم يبدأ.

ـ قلت ابدأ من جديد.

لم يتحرك الطفل أكثر من السابق ودوّى صخب البحر في صمت إصراره من جديد. وازداد لون السماء الوردي في انتفاضةٍ أخيرة.

قال الطفل:

ـ لا أريد أن اتعلم البيانو.

عندئذ رَنَّت في الشارع، في أسفل البناية، صرخة امرأة وتعالى أنين مستطيل متصل كان بدرجة من الشدة بحيث تحطم معه صخب البحر، ثم توقف مرة واحدة.

صاح الطفل:

ـ ما هذا؟

فقالت السيدة:

ـ لقد وقع حادث ما.

انبعث صخب البحر من جديد ومال لون السماء الوردي إلى الشحوب.

قالت آن ديباريد:

ـ لا، لم يحدث شيء هام.

نهضت من كرسيها وذهبت نحو البيانو. قالت السيدة وهي تنظر إليهما سوية بشيء من الاستنكار:

ـ كم هذا مثير للأعصاب!

أمسكت آن ديباريد الطفل من كتفه وضغطت عليه إلى درجة إيلامه وقالت وهي تكاد تصرخ:

ـ يجب أن تتعلم البيانو. يجب ذلك.

ارتجف الطفل أيضاً لنفس السبب، لأنه شعر بالخوف وقال مغمغماً:

ـ لا أحب البيانو.

حَلَّت صرخات أخرى محل الصرخة الأولى، متناثرة، متنوعة تثبّت حادثاً واقعاً أصبح منذ الآن متجاوزاً مطمئناً. استمر الدرس وواصلت آن ديباريد قولها:

ـ يجب ذلك. يجب ذلك.

هزت السيدة رأسها وهي تلومها على هذا القدر من اللطف. وبدأ

الشفق يكسح البحر وزالت ألوان السماء ببطء. لم يبق سوى الغرب متخضباً بالحمرة لكنه كان يندثر شيئاً فشيئاً. سأل الطفل:

ـ لماذا؟

ـ الموسيقى، يا عزيزي...

تمهل الطفل فترة من الوقت محاولاً أن يفهم، ولم يفهم، لكنه قبل بذلك.

ـ حسناً، لكن من الذي أطلق الصرخة؟

قالت السيدة:

ـ لا أزال أنتظر.

فطفق يعزف وتعالى صوت الموسيقى وطغى على ضجة الحشد الذي بدأ يتجمع تحت النافذة، على الرصيف.

قالت آن ديباريد بمرح:

ـ مع ذلك، مع ذلك، انظري.

فقالت السيدة:

ـ لو كان يرغب في ذلك.

ـ أنهى الطفل سوناتينته وفي الحال اندفعت في الغرفة الضجة الصاعدة من الأسفل، عاتية، ملحة.

سأل الطفل من جديد:

ـ ما هذا؟

فأجابت السيدة:

ـ ابدأ من جديد. لا تنسَ: موديراتو كانتابيل. فكر في أغنية تُغنّى لك لإرقادك.

قالت آن ديباريد:

ـ لم يحدث لي أن غنيت له أغاني أبداً. هذا المساء سيطلب مني أن أغني له واحدة ولا شك أنه سيلح لدرجة لن أستطيع معها أن أرفض الغناء.

لم تكن السيدة تشعر برغبة في الإصغاء إليها. واستأنف الطفل عزف سوناتينته ديابيلي.

قالت السيدة بصوت مرتفع جداً:

ـ سي بيمول في نهاية المقطع. أنت تنسى ذلك في أغلب الأحيان.

كانت تصل من الرصيف أصوات مستعجلة يتزايد عددها لنساء ورجال، ويبدو أنها كانت تقول نفس الشيء الذي لم يكن بالإمكان تمييزه. واستمرت السوناتينة تأخذ مجراها بدون مقاطعة حتى إذا ما بلغت وسطها لم تعد السيدة تتمالك نفسها.

ـ قف.

توقف الطفل والتفتت السيدة نحو آن ديباريد:

ـ من المؤكد أنه وقع حادث خطير.

ذهبوا ثلاثتهم إلى النافذة. كانت جماعة من الناس قد احتشدت منذ الآن على يسار الرصيف على بعد عشرين متراً من البناية، مقابل المقهى. وكان هنالك أشخاص يفدون راكضين من جميع الشوارع المجاورة وينضمون إليها. وكان الجميع ينظرون إلى داخل المقهى.

قالت السيدة:

ـ وا أسفاه! هذا الحي... ـ والتفتت نحو الطفل وأمسكت بذراعه ـ استأنفْ عزفك للمرة الأخيرة من الموضع الذي توقفت فيه.

ـ ماذا حدث؟

ـ سوناتينتك.

عزف الطفل. استأنف السوناتينة بنفس الإيقاع السابق، وعندما اقتربت نهاية الدرس نَوَّعها بفروق دقيقة كما طُلب إليه ذلك، رَسْلاً وشَدْواً.

قالت آن ديباريد:

ـ عندما يطيع هكذا فإني أكاد أشعر بالقرف. إني كما ترين لا أعرف ما أريد. يا للعذاب!

استمر الطفل مع ذلك يجيد الأداء ولاحظت السيدة قائلة بصورة تكاد تكون مرحة:

ـ يا للتربية التي تعطيها له الآن!

عندئذ توقف الطفل.

ـ لماذا توقفت؟

ـ كنت أتصور...

واستأنف سوناتينته كما طلب منه ذلك. كانت ضجة الحشد المخنوقة تتضخم باستمرار وقد أصبحت الآن بدرجة من الشدة بحيث طغت على الموسيقى رغم ارتفاع البناية.

قالت السيدة:

ـ هذا السي بيمول في نهاية المقطع. لا تنسَ، لولاه لأصبح عزفك ممتازاً. أترى ذلك؟

أخذت السوناتينة مجراها وتوسعت ونمت ثم بلغت نغمتها الأخيرة مرة أخرى وانتهى الوقت.

أعلنت السيدة انتهاء الدرس المخصص لهذا اليوم وقالت:

ـ ستعانين مشقة كبيرة مع هذا الطفل يا مدام ديباريد. أنا التي تقول لك ذلك.

ـ عانيتها قبل الآن. إنه يضنيني.

أطرقت مدام ديباريد وأغمضت عينيها في ابتسامة مؤلمة لولادة لا نهاية لها. وفي الأسفل أشارت بعض صرخات ونداءات متعلقة إلى انقضاء حادث مجهول. قالت السيدة:

ـ غداً سنعرف ذلك جيداً.

وهرع الطفل إلى النافذة وقال:

ـ وصلت بعض السيارات.

كان الحشد يسد المقهى من جهتي المدخل، وكان لا يزال يتضخم بما تصب فيه الشوارع المجاورة من الناس، ولكن بصورة أقل من السابق. كان أكبر بكثير مما يمكن توقعه لتضاعف عدد سكان المدينة. تنحى الناس وتجوف مجرى في وسطهم لإفساح المجال لمرور سيارة نقل سوداء نزل منها ثلاثة أشخاص دخلوا إلى المقهى. قال أحدهم:

ـ الشرطة.

واستعلمت آن ديناريد:

ـ قُتل شخص. امرأة.

تركت طفلها أمام مدخل بيت الآنسة جيرو وانضمت إلى معظم الحشد المتجمهر أمام المقهى، وبعد أن اندست فيه بلغت الصف الأخير من الناس الذين وقفوا بمحاذاة زجاج النوافذ المفتوحة ينظرون وقد شل المنظر حركتهم.

في داخل المقهى وفي الظل الخفيف الذي يسود القاعة الداخلية كانت امرأة ممددة على الأرض لا حراك بها. وكان هنالك رجل مضطجع فوقها يناديها بهدوء وهو متشبث بكتفيها:

ـ حبيبتي .. حبيبتي..

التفت نحو الجمهور ونظر إليه فرأى الناس عينيه. كان قد اختفى فيهما كل تعبير عدا تعبير رغبة المصعوق الثابت المنزوي عن العالم. دخل رجال الشرطة وكانت صاحبة المقهى بانتظارهم وهي منتصبة بنبلٍ قرب مشربها:

ـ حاولت مخابرتكم ثلاث مرات.

وقال أحد الحاضرين:

ـ يا للمرأة المسكينة.

سألت آن ديباريد:

ـ لماذا؟

ـ لا نعرف.

كان الرجل في هذيانه يتمرغ على جسد المرأة الممدد. جاء مفتش فأمسك بذراعه وأنهضه. لم يبد أية مقاومة وكان يبدو أنه فقد كل كرامة إلى الأبد. تفرس في المفتش بنظرٍ غائب دائماً عن بقية العالم وتركه المفتش وأخرج من جيبه مفكرة وقلماً وسأله أن يذكر هويته وبقي ينتظر. قال الرجل:

ـ لا داعي لذلك. لن أجيب الآن.

لم يلح المفتش في طلبه ولحق بزملائه الذين كانوا يستجوبون صاحبة المقهى وهم جالسون أمام آخر منضدة في القاعة الخلفية. جلس الرجل قرب المرأة الميتة وداعب شعرها وابتسم لها. وصل شاب وهو يجري إلى بابِ المقهى وكان متقلداً آلة تصوير فوتوغرافية فأخذ صورته هكذا وهو جالس يبتسم. واستطاع الناس أن يروا على ضوء المغنسيوم بأن المرأة كانت ما تزال فتية، وبأن دماً كان يسيل من فمها على هيئة خطوط دقيقة مبعثرة وبأن شيئاً منه كان يلطخ وجه الشاب الذي عانقها قبل قليل. قال أحد الواقفين:

ـ هذا مقرف.

وانصرف. رقد الرجل مرة ثانية بمحاذاة جسد المرأة لكن لفترة قصيرة جداً ثم نهض من جديد كأن هذا الأمر قد أعياه. صرخت صاحبة المقهى:

ـ امنعوه من الهرب.

لكن الرجل لم يكن قد نهض إلا ليتمدد بصورة أحسن من السابق

بمحاذاة الجسد وبأقرب ما يمكن منه. بقي هكذا وقد ارتسم عليه تصميم هادىء وهو متشبث بها من جديد بذراعيه ووجهه ملصق بوجهها في الدم الذي يلوث فمها. لكن المفتشين انتهوا من كتابة ما أملته عليهم صاحبة المقهى فجاءوا ثلاثتهم وهم يمشون معاً بخطوات بطيئة وعلى وجوههم علامات ضجر كبير متشابه حتى وصلوا أمامه.

كان الطفل الجالس بتعقل تحت مدخل باب الآنسة جيرو قد نُسي قليلاً. كان يترنم بسوناتينة ديابيلي.

قالت آن ديباريد:

ـ لم يكن شيئاً ذا أهمية. الآن يجب أن نعود.

تبعها الطفل. وصلت نجدات من الشرطة بصورة متأخرة وبدون سبب. أثناء مرورهما أمام المقهى خرج الرجل منها يحيط به المفتشون وعند مروره تنحى الناس بصمت. قال الطفل:

ـ ليس هو الذي صرخ. هو لم يصرخ.

ـ لم يكن هو. لا تنظر.

ـ قولي لي لماذا.

ـ لا أعلم.

سار الرجل بانقياد حتى سيارة الموقوفين. لكنه عندما وصل إلى هناك ناضل بصمت لتحرير نفسه وأفلت من المفتشين وركض بكل قواه في الاتجاه المخالف نحو المقهى. لكنه ما كاد يبلغه حتى انطفأت أنوار المقهى. عندئذ توقف في أقصى عدوه ثم تبع من جديد خطوات المفتشين حتى وصل السيارة وصعد فيها. لعله كان يبكي عندئذ لكن الشفق

المخيم لم يسمح للناظر أن يلمح إلا تكشيرة وجهه الملطخة بالدم المرتجفة ولم يعد بالإمكان رؤية ما إذا كانت الدموع تسيل على هذا الوجه أم لا.

قالت آن ديباريد عند وصولهما إلى جادة البحر:

ـ مع ذلك فبوسعك أن تتذكر ذلك لآخر مرة. موديراتو تعني رَسْلاً وكانتابيل تعني شَدْواً. هذا أسهل.

2

في اليوم التالي وبينما كانت جميع المصانع لا تزال تنفث دخانها في الطرف الآخر من المدينة، وفي الساعة التي مرت الآن والتي كانا يذهبان فيها كل يوم جمعة إلى هذا الحي، قالت آن ديباريد لطفلها:

ـ تعال.

سارا بمحاذاة جادة البحر. كان هنالك أشخاص يتنزهون منذ الآن متسكعين وكان يوجد حتى بعض المستحمين.

كان الطفل من الاعتياد على التجوال في المدينة كل يوم برفقة أمه بحيث كان بوسعها اقتياده إلى أي مكان. ومع ذلك فبعد أن اجتازا أول حاجز في الميناء وعندما بلغا الحوض الثاني للجرارات الذي تسكن فوقه الآنسة جيرو، شعر بالخوف.

ـ لماذا هنا؟

قالت آن ديباريد:

ـ ولم لا؟ نحن نأتي اليوم للنزهة فقط. تعال. هنا أو في مكان آخر فالأمر سواء.

لم يبد الطفل أية مقاومة وتبعها حتى الأخير.

ذهبت إلى المشرب مباشرة. لم يكن هنالك سوى رجل واحد يقرأ جريدة. طلبت قائلة:

ـ قدح نبيذ.

كان صوتها يرتجف ودهشت صاحبة المقهى ثم تمالكت نفسها:

ـ وللطفل؟

ـ لا شيء.

قال الطفل:

ـ هنا صرخ أحد الأشخاص. إني أتذكر ذلك.

توجه نحو شمس الباب ونزل الدرجة واختفى على الرصيف.

قالت صاحبة المقهى:

ـ الطقس جميل.

لاحظت أن هذه المرأة ترتجف فتحاشت النظر إليها. قالت آن ديباريد:

ـ كنت أشعر بعطش.

ـ الأيام الأولى من الحر. هذا هو السبب.

ـ سأطلب منك قدحاً آخر من النبيذ.

أدركت صاحبة المقهى لدى رؤية الارتجافة المستمرة لهاتين اليدين الممسكتين بالقدح أنها لن تعثر بسرعة على التفسير الذي ترغب في معرفته، وأن هذا التفسير سيأتي من تلقاء نفسه عند زوال هذا الانفعال.

كان ذلك أسرع مما تصورت. شربت آن ديباريد قدحها الثاني جرعة واحدة. قالت:

ـ كنت مارة من هنا.

فقالت صاحبة المقهى:

ـ إنه طقس يغري بالنزهة.

كان الرجل قد كف عن قراءة جريدته.

ـ في الحقيقة أني كنت يوم أمس في مثل الساعة لدى الآنسة جيرو.

خفت ارتجافة يديها واتخذ وجهها هيئة تكاد تكون محتشمة.

ـ إني أتذكرك.

قال الرجل:

ـ كانت جريمة.

فكذبت آن ديباريد قائلة:

ـ فهمت الآن... كنت أتساءل عن ذلك.

ـ هذا أمر طبيعي.

قالت صاحبة المقهى:

ـ تماماً. كان هنالك موكب لا ينقطع هذا الصباح.

مر الطفل وهو يحجل على الرصيف.

ـ إن الآنسة جيرو تعطي دروساً لولدي الصغير.

كانت ارتعاشة صوتها قد زالت أيضاً ولعل ذلك حصل بتأثير النبيذ. وانصبت في عينيها شيئاً فشيئاً ابتسامة تحرر وخلاص.قالت صاحبة المقهى:

ـ إنه يشبهك.

ـ يقولون ذلك.

وازداد تحدد معالم الابتسامة.

ـ العيون.

ـ لا أدري. كما ترين، أثناء خروجي معه للنزهة وجدت أنها فرصة أن آتي اليوم إلى هنا. وهكذا...

ـ جريمة. نعم.

وكذبت آن ديباريد من جديد:

ـ آه ، كنت أجهل ذلك.

غادرت إحدى الجرارات حوض الميناء وأقلعت تصحبها قرقعة منتظمة حارة صادرة من محركاتها.

وقف الطفل جامداً على الرصيف خلال الوقت الذي استغرقته قيادتها ثم استدار نحو أمه.

ـ أين تذهب هذه؟

قالت له أنها تجهل ذلك فانطلق الطفل من جديد. أمسكت بقدح فارغ أمامها وتبينت غفلتها فوضعته ثانية على المشرب وانتظرت وهي تغض الطرف. عندئذ اقترب منها الرجل:

ـ هل تسمحين؟

لم تدهش رغم الاضطراب المسيطر عليها بكليتها:

ـ الحقيقة يا سيدي أني لست معتادة على ذلك.

طلب نبيذاً وتقدم خطوة أخرى نحوها.

ـ كانت هذه الصرخة من الشدة بحيث كان من الطبيعي حقاً أن يحاول الإنسان معرفة مصدرها. وكما ترى لم يكن بمقدوري تحاشي ذلك إلا بصعوبة.

شربت نبيذها. قدحها الثالث.

ـ ما أعرفه هو أنه أطلق عليها رصاصة أصابتها في قلبها.

دخل زبونان تعرفا على هذه المرأة الواقفةعند المشرب ودهشا لذلك.

ـ وبالطبع لا يمكن معرفة السبب.

كان واضحاً أنها لم تكن معتادة على النبيذ وأن شيئاً آخر مختلفاً تماماً يشغلها بصورة عامة في هذه الساعة من النهار.

ـ بودي أن أخبرك بذلك لكن ما أعرفه ليس أكيداً.

ـ ربما لا أحد يعرف ذلك؟

ـ هو كان يعلم ذلك. لقد أصبح الآن مجنوناً وهو محتجز منذ أمس مساء. أما هي فماتت.

برز الطفل من الخارج والتصق بأمه في حركة استسلام سعيدة. داعبت شعره وهي شاردة الفكر ونظر الرجل بصورة أكثر إمعاناً. قال:

ـ كانا متحابين.

انتفضت ولكن بصورة تكاد تكون غير محسوسة. قال الطفل:

ـ أنت إذن تعرفين الآن؟ لماذا صرخ هذا الشخص؟

لم تجب وأومأت برأسها سلباً. وانطلق الطفل من جديد نحو الباب وهي تتابعه بعينيها.

ـ كان هو يشتغل في مستودع الأسلحة. أما هي فلا أعرف.

التفتت نحوه واقتربت.

ـ لعلهما كانا يواجهان بعض المصاعب، ما يُسمّى بمصاعب الحب؟

انصرف الزبائن وكانت صاحبة المقهى قد سمعتها فتقدمت إلى طرف المشرب. قالت:

ـ هي متزوجة وأم لثلاثة أطفال كما أنها سكيرة. إن الإنسان يتساءل لماذا.

قالت آن ديباريد بعد فترة من الوقت:

ـ لعل ذلك لا يمنع؟

لم يوافق الرجل فشعرت بعدم ارتياح وفي الحال عاودتها ارتجافة يديها. قالت:

ـ الحاصل، أني لا أعرف...

قالت صاحبة المقهى:

ـ كلا. صدقوني. وأنا لا أحب التدخل في شؤون الآخرين بصورة عامة.

دخل ثلاثة زبائن جدد فابتعدت صاحبة المقهى. قال الرجل مبتسماً:

ـ اعتقد أنا أيضاً أن ذلك لا يمنع. نعم لا بد وأنهما كانا يعانيان من مصاعب الحب كما تقولين. لكن من المحتمل أنه لم يقتلها بسبب هذه المصاعب. من يدري؟

ـ من يدري؟ هذا صحيح.

بحثت يدها عن القدح بصورة آلية وأشار هو إلى صاحبة المقهى أن تقدم لهما من جديد نبيذاً.

لم تحتج آن ديباريد بل على العكس بدا عليها أنها كانت تنتظر ذلك. قالت بصوت خافت:

ـ يوحي تصرفه معها كما لو أنه لم يعد يهمه منذ ذلك الحين أن تكون حية أو ميتة. هل تعتقد أن من الممكن بلوغ... هذه الدرجة... عن طريق آخر غير اليأس؟

تردد الرجل وتطلع إليها ثم اتخذ لهجة قاطعة وقال:

ـ أجهل ذلك.

ناولها قدحها فأخذته وشربت. وأعادها إلى مواضيع لا شك أنها كانت مألوفة بالنسبة له أكثر منها.

ـ إنك غالباً ما تتنزهين في المدينة.

ازدردت جرعة نبيذ وعادت الابتسامة إلى وجهها فأظلمته من جديد ولكن بصورة أعمق مما كان عليه قبل قليل. كان سكرها قد بدأ.

ـ نعم إني أنزّه طفلي كل يوم.

كانت صاحبة المقهى تتحدث مع الزبائن الثلاثة وكان اليوم هو السبت. كان لدى الناس وقت زائد لتبديده.

ـ في هذه المدينة رغم صغرها يحدث كل يوم شيء ما، وأنت تعرفين ذلك.

ـ أعرف ذلك ولكن يحدث من دون شك في أحد الأيام... أن يقع

حادث يثير دهشتك أكثر من الحوادث الأخرى ـ واضطربت ـ إني أذهب عادة إلى حدائق الساحات و إلى ساحل البحر.

أفلحت بفضل نشوتها المتزايدة باستمرار في النظر إلى هذا الرجل أمامها.

ـ إنك تخرجين به للنزهة منذ زمن طويل.

كانت تنظر إلى عيني الرجل الذي يتحدث إليها وكان هو أيضاً ينظر إليها في نفس الوقت. استأنف قائلاً:

ـ أعني مضى زمن طويل وأنت تخرجين به للنزهة في حدائق الساحات وعلى ساحل البحر.

تذمرت. واختفت ابتسامتها فحلت محلها برطمة أزالت النقاب بصورة عنيفة عن وجهها وتركته بدون حماية.

ـ لم يكن من الواجب أن أشرب هذا المقدار من النبيذ.

دوت صفارة إنذار تعلن انتهاء العمل لفرق العمال الذين يشتغلون يوم السبت. وبعد ذلك مباشرة ارتفع صوت الراديو في زوبعة لا تحتمل. أعلنت صاحبة المقهى:

ـ أنها الساعة السادسة منذ الآن.

خفضت صوت الراديو وانشغلت بإعداد صفوف الأقداح على المشرب. بقيت آن ديباريد فترة طويلة غارقة في صمت مذهول وهي تنظر إلى الرصيف كما لو لم تكن تتوصل إلى ما يجب أن تفعله بنفسها. ولما سمعت في الميناء حركة رجال مدوية رغم أنها كانت ما تزال بعيدة، كلّمها الرجل من جديد:

ـ كنت أقول لك أنه مضى زمن طويل وأنت تخرجين بهذا الطفل للنزهة على ساحل البحر أو في حدائق الساحات.

قالت آن ديباريد:

ـ منذ أمس مساء فكرت في الأمر أكثر فأكثر. منذ درس البيانو الذي تلقاه طفلي. لم يكن بوسعي أن أمنع نفسي عن المجيء اليوم.

دخلت الوجبة الأولى من الرجال وقد شق الطفل طريقه بينهم وعليه مظهر حب الاستطلاع، ثم جاء نحو أمه التي أخذته وضمته نحوها في حركة احتضان آلية.

ـ إنك السيدة ديباريد زوجة مدير شركة «واردات وصادرات مسابك الساحل» وأنت تسكنين جادة البحر.

دوت صفارة إنذار أخرى أضعف من الأولى في الطرف الآخر من الرصيف. ووصلت جرارة سفن. تخلص الطفل منها بشيء من العنف وانصرف راكضاً. قالت:

ـ إنه يتعلم البيانو. له مؤهلات لكنه يهمل واجباته كثيراً. يجب أن اعترف بذلك.

اقترب منها نوعاً ما أكثر من قبل وكان يفعل ذلك باستمرار ليفسح المجال لأشخاص آخرين كانوا يدخلون المقهى بصورة منتظمة وبأعداد كبيرة. انصرف الزبائن الأول ووصل مزيد من الآخرين. وبين الفريقين وفي لعبة ذهابهم ومجيئهم كانت ترى الشمس وهي تغرب على البحر والمساء وهي تلتهب والطفل الذي كان يلعب وحيداً في الجهة الأخرى من الرصيف، لعباً لم يكن بالإمكان تمييزه من هذه المسافة. كان يطفر حواجز وهمية ولا بد أنه كان يغنّي.

ـ أود أن يحقق هذا الطفل أشياء كثيرة في نفس الوقت وهي من التعدد بحيث لا أعرف بأية كيفية أتصرف ولا بأي شيء أبداً. إني أعالج الموضوع بصورة سيئة للغاية. يجب أن أعود لأن الوقت أصبح متأخراً.

ـ رأيتك مراراً عديدة. لم أكن اتصور أنك في يوم من الأيام ستأتين إلى هنا مع طفلك.

رفعت صاحبة المقهى صوت الراديو إرضاء لآخر وجبة من الزبائن كانت قد دخلت قبل قليل. التفتت آن ديباريد نحو المشرب وقطبت وجهها ثم قبلت الضجة ونستها.

ـ لو كنت تعرف مقدار السعادة التي تريد تحقيقها لهم، كما لو كان هذا الأمر ممكناً. لعل من المستحسن أحياناً أن يفصلوا بيننا وبينهم. لا أستطيع أن أستسلم للأمر الواقع فيما يتعلق بهذا الطفل.

ـ أنت تملكين منزلاً جميلاً في نهاية جادة البحر وحديقة كبيرة مسورة.

نظرت إليه بارتباك بعد أن استعادت حواسها. وأكدت قائلة:

ـ لكني أجد متعة كبيرة في دروس البيانو هذه.

عاد الطفل نحوهما مرة أخرى يلاحقه الشفق وبقي في مكانه يتأمل العالم والزبائن. وأشار الرجل إلى آن ديباريد أن تنظر إلى الخارج. فابتسمت له. قال:

ـ انظري. النهر يطول ويطول...

نظرت آن ديباريد وعدلت معطفها بعناية وبتمهل.

ـ هل تشتغل في هذه المدينة يا سيدي؟

ـ في هذه المدينة، نعم. لو عدت سأحاول أن أعرف أشياء أخرى أخبرك بها.

غضت طرفها وتذكرت فشحب لونها. قالت:

ـ كان هنالك دم على فمها وكان يقبلها. يقبلها.

تمالكت نفسها وقالت:

ـ الشيء الذي قلته. هل كنت تفترضه؟

ـ لم أقل شيئاً.

كان الغروب الآن واطئاً لدرجة أنه بلغ وجه الرجل بينما كان جسمه، وهو واقف مستند قليلاً إلى المشرب، قد انغمر فيه قبل الآن.

ـ إن الإنسان بعد أن يراه لا يستطيع أن يمنع نفسه. أليس كذلك؟ يكاد يكون الأمر محتوماً؟

كرر الرجل:

ـ إني لم أقل شيئاً لكني أعتقد أنه سدد نحو قلبها كما طلبت منه ذلك.

تأوهت آن ديباريد. وانبعث منها أنين عذب يكاد يكون داعراً.

قالت:

ـ إنه أمر غريب. لا أشعر برغبة في العودة.

تناول قدحه فجأة فشربه جرعة واحدة. لم يجبها وتخلى عن النظر إليها.
استمرت قائلة:

ـ لا بد وأني شربت أكثر مما ينبغي. لا شك أن هذا هو السبب.

قال الرجل:

ـ هذا هو السبب. نعم.

كان المقهى قد خلا من الناس تقريباً وقل عدد الداخلين. كانت صاحبة المقهى تنظر إليهما من طرف خفي أثناء غسلها الأقداح وقد حَيَّرها ولا شك أن تراهما تأخرا إلى هذه الدرجة. كان الطفل بعد أن عاد إلى الباب يتأمل الأرصفة التي يسودها الصمت الآن. سكتت آن ديباريد فترة طويلة أخرى وهي واقفة أمام الرجل مديرة ظهرها نحو الميناء. أما هو فلم يكن يبدو عليه أنه يلاحظ حضورها.

قالت أخيراً:

ـ كان من المستحيل علي أن لا أعود.

ـ عدت أنا أيضاً مثلك لنفس السبب.

قالت صاحبة المقهى:

ـ إنها تُرى غالباً وهي تتجول في المدينة مع ولدها الصغير. في نهاية الربيع كل يوم.

ـ دروس البيانو؟

ـ يوم الجمعة. مرة واحدة كل أسبوع. يوم أمس. في الحقيقة أن هذا الموضوع يتيح لها الخروج.

كان الرجل يعبث بتحريك النقود في جيبه وكان يتطلع إلى الرصيف أمامه. لم تصر صاحبة المقهى على الكلام.

بعد أن اجتازا حاجز الميناء كانت جادة البحر تمتد أمامهما مستقيمة تماماً حتى نهاية المدينة. قالت آن ديباريد:

ـ ارفع رأسك وانظر إلي.

أطاعها الطفل وهو معتاد على سلوكها.

ـ في بعض الأحيان يخيل إلي أني اخترعتك وأن الأمر ليس حقيقياً. أترى؟

رفع الطفل رأسه وتثاءب أمامها فامتلأ باطن فمه بآخر أنوار الغروب. كانت دهشة آن ديباريد كلما نظرت إلى هذا الطفل هي نفسها دائماً منذ أول يوم. لكنها في هذا المساء اعتقدت ولا شك أن هذه الدهشة تجددت بنفسها.

3

دفع الطفل البوابة الخارجية ومحفظ كتبه تتأرجح على ظهره ثم توقف عند مدخل المنتزه. راقب المروج حوله ومشى ببطء على رؤوس قدميه منتبهاً إلى الطيور التي يمكن أن يحملها على الهرب أثناء تقدمه. وفي تلك اللحظة بالذات طار أحد الطيور محلقاً. تابعه الطفل بعينيه برهة من الزمن ريثما رآه يحط على شجرة في المنتزه المجاور، ثم تابع طريقه حتى وصل أسفل نافذة معينة وراء شجرة من أشجار الزان. رفع رأسه. عند هذه النافذة وفي هذه الساعة من النهار كان يقابل دائماً بابتسامة. وقد ابتسم له. صاحت آن ديباريد:

ـ تعال، سنخرج للنزهة.

ـ بمحاذاة البحر.

ـ بمحاذاة البحر وفي كل مكان. تعال.

تابعا من جديد السير في الجادة باتجاه حواجز الميناء وفهم الطفل بسرعة كبيرة ولم يدهش كثيراً.

قال متذمراً:

ـ هذا بعيد.

ثم قبل وترنم بأغنية.

عندما اجتاز الحوض الأول كان الوقت مازال باكراً. كان الأفق أمامهما في الطرف الجنوبي من المدينة قاتماً تتخلله خطوط سوداء وغيوم بلون أصفر كانت المسابك تصبها نحو السماء.

كانت ساعة بطالة والمقهى ما يزال مقفراً، وكان الرجل وحده موجوداً هناك في طرف البار.

نهضت صاحبة المقهى حالما دخلت آن ديباريد وذهبت نحوها. أما الرجل فلم يتحرك.

ـ ماذا ستشربين؟

ـ أريد قدحاً من النبيذ.

شربته حالما قدم لها وكانت الارتجافة أشد مما كانت عليه قبل ثلاثة أيام.

ـ لعلك تستغربين من رؤيتي مرة أخرى.

قالت صاحبة المقهى:

ـ في مهنتي...

ونظرت إلى الرجل خلسة ـ كان هو أيضاً قد شحب لونه ـ وجلست ثانية ثم غيرت رأيها فاستدارت على نفسها وأذارت الراديو بحركة محتشمة. غادر الطفل أمه وانصرف نحو الرصيف.

ـ إن ولدي كما قلت لك يتلقى دروساً في البيانو لدى الآنسة جيرو. لا شك أنك تعرفينها.

ـ أعرفها. مضى أكثر من عام وأنا أراك تمرين مرة واحدة في الأسبوع. الجمعة. أليس كذلك؟

ـ الجمعة، نعم. أريد قدحاً آخر من النبيذ.

كان الطفل قد عثر على رفيق له. كانا يتطلعان وهما يقفان بسكون على مقدم الرصيف، إلى قارب كبير يفرغ حمولته من الرمل.

شربت آن ديباريد نصف قدحها الثاني من النبيذ وخفت ارتجافة يديها قليلاً. قالت وهي تنظر إلى مقدم الرصيف:

ـ إنه طفل يبقى وحده دائماً.

استعادت صاحبة المقهى سرد حياكتها الأحمر وفكرت أن لا جدوى من الإجابة. كانت جرارة أخرى محملة إلى حافتها تدخل الميناء وقد صرخ الطفل متفوهاً بشيء غير واضح.

واقترب الرجل من آن ديباريد. قال:

ـ اجلسي.

تبعته بدون كلام. وكانت صاحبة المقهى أثناء حياكتها تنظر إلى الجرارة بإصرار. كان واضحاً حسب رأيها أن الأشياء تتخذ أتجاهاً مغيضاً.

ـ هنا.

أشار لها إلى منضدة فجلست وجلس هو في مواجهتها.

غمغمت:

ـ شكراً.

كان يخيم على القاعة ظل خفيف طري يعلن عن بداية الصيف.

ـ لقد عدت كما ترى.

صَفَّر طفل في الخارج على مقربة منها فانتفضت. قال الرجل وعيناه على الباب:

ـ أود أن تتناولي قدحاً آخر من النبيذ.

طلب النبيذ فنفذت صاحبة المقهى ما طلب وهي صامتة ولا شك أنها سأمت منذ الآن عدم انتظام تصرفاتهما. أسندت آن ديباريد ظهرها إلى كرسيها واستسملت إلى الراحة التي تركها لها خوفها.

قال الرجل:

ـ مضت الآن ثلاثة أيام.

فانتصبت بمجهود وشربت نبيذها من جديد. قالت بصوت منخفض:

ـ إنه طيب الطعم.

لم تعد يداها ترتجفان وقدانتصبت مرة أخرى وتقدمت قليلاً نحوه بينما كان هو ينظر إليها الآن:

ـ أود أن أسالك. ألا تشتغل أنت اليوم؟

ـ كلا. إني بحاجة إلى وقت هذه الأيام.

ارتسمت على وجهها ابتسامة حياء خبيث.

ـ وقت لكي لا تعمل شيئاً؟

ـ لا شيء. نعم.

كانت صاحبة المقهى في مكانها تماماً وراء خزانتها. وتكلمت آن ديباريد بصوت منخفض:

ـ الصعوبة بالنسبة لامرأة هي أن تعثر على عذر للذهاب إلى مقهى. لكني قلت لنفسي بأني قادرة مع ذلك على العثور على أحد الأعذار. قدح نبيذ مثلاً، العطش...

ـ حاولت معرفة المزيد إلا أني لا أزال لا أعرف شيئاً.

أرهقت آن ديباريد نفسها مرة أخرى بالتذكر. قالت:

ـ كانت صرخة طويلة جداً، عالية جداً، إنتهت على الفور وهي في أوج قوتها.

قال الرجل:

ـ كانت تحتضر. ولا بد من الصرخة انتهت في اللحظة التي كفت فيها عن رؤيته.

وصل زبون لم ينتبه إليهما كثيراً واستند بمرفقه إلى المشرب.

ـ يخيل إلي تماماً أني في إحدى المرات، نعم مرة، صرخت نوعاً ما بهذه الصورة، ربما، نعم ربما أثناء ولادتي هذا الطفل.

ـ كانا قد تعارفا في مقهى صدفة. ولعل ذلك حدث في هذا المقهى الذي كان كل واحد منهما يتردد إليه. ثم بدأا يتحدثان عن أشياء متنوعة كثيرة، لكني لا أعرف شيئاً أبداً. هل آلمك كثيراً هذا الطفل؟

ـ صرخت بصورة لا تستطيع تصورها.

ابتسمت وأثناء تذكرها اندفعت إلى الخلف وقد تحررت فجأة من كل مخاوفها. اقترب من المنضدة وقال لها بخشونة:

ـ حدثيني.

قامت بمجهود ووجدت ما تقوله.

ـ إني أسكن في البيت الاخير من حارة البحر. آخر واحد عندما تغادر المدينة قبل كثبان الرمل تماماً.

ـ المنجوليا في الزاوية اليسرى من البوابة الخارجية مزهرة.

ـ نعم هي من الكثرة في هذ الفصل من السنة بحيث يمكن أن يحلم بها الإنسان ويبقى سقيم الجسم طيلة اليوم التالي. يضطر الإنسان إلى غلق نافذته لأن ذلك فوق الاحتمال.

ـ وفي هذا البيت تزوجك قبل عشر سنوات من الآن؟

ـ في هذا البيت. غرفتي في الطابق الأول إلى اليسار بمواجهة البحر. قالت له في المرة الأخيرة أنه قتلها لأنها طلبت منه ذلك، أي لإرضائها في الحقيقة؟

تمهل فترة وهو ينظر إلى خط كتفيها من دون أن يجيب على سؤالها. وقال:

ـ إذا كنت تغلقين نافذتك في مثل هذا الفصل من السنة فلا بد أنك تشعرين بحرارة وتنامين بصورة سيئة.

بدت على آن ديباريد علامات الجد أكثر مما كان يتطلب حديثهما ذلك، حسب الظاهر.

ـ إن رائحة المنجوليا نفَّاذة إلى درجة كبيرة. لعلك تعرف ذلك.

ـ أعرف.

تركت عيناه النظر إلى خط كتفيها المستقيم وكف عن النظر إليها.

ـ ألا يوجد في الطابق الأول ممشى طويل، طويل جداً، مشترك بينك وبين الآخرين الذين يسكنون هذا البيت بحيث بجعلكم تسكنونه سوية وبصورة منفردة في نفس الوقت؟

قالت آن ديباريد:

ـ هذا الممشى موجود وبالشكل الذي تصفه. أرجوك أخبرني. كيف انتهى بها الأمر إلى أن اكتشفت أن هذا هو بالضبط ما كانت تريده منه. كيف عرفت بهذه الصورة ما كانت تبتغيه منه؟

عادت عيناه إلى النظر في عينيها بشخوص أصبح زائغاً تماماً. قال:

ـ أتصور أنها في يوم من الأيام، صباح أحد الأيام عند الفجر، عثرت على ما كانت تبتغيه منه. عندئذ أصبح كل شيء واضحاً لديها بدرجة أنها أخبرته بمكنون رغبتها. لا يوجد تفسير كما أعتقد لمثل هذا النوع من الاكتشاف.

كانت ألعاب الطفل الهادئة مستمرة في الخارج. وقد وصلت الجرارة الثانية إلى الرصيف. وفي فترة الراحة التي أعقبت توقف محركاتها حركت صاحبة المقهى بإهمال متعمد بعض الأشياء تحت المشرب وذكرتهما بالوقت الذي يمرّ.

ـ هل قلتِ بأن من الضروري اجتياز هذا الممشى للذهاب إلى غرفتك؟

ـ نعم هذا الممشى.

دخل الطفل وهو يعدو بسرعة وأسقط رأسه على كتف أمه لكنها لم تلتفت إليه. قال:

ـ أوه، كم أجد متعة في اللعب!

واختفى مرة أخرى. قالت آن ديباريد:

ـ نسيت أن أقول لك كم أود أن يصبح كبيراً منذ الآن!

صبّ لها شيئاً من النبيذ وناولها قدحها فشربته على الفور.

قال:

ـ أتعرفين؟ أتصور أيضاً أنه كان سيفعل ذلك من تلقاء نفسه في يوم من الأيام، حتى بدون إلحاحها هي وأنها لم تكن وحدها التي اكتشفت ما كانت تبتغيه منه.

استأنفت أسئلتها بصورة منتظمة تبعث على المضايقة:

ـ أود أن تحدثني عن البداية نفسها، كيف بدأ الحديث بينهما. قلت لي أن ذلك حدث في مقهى...

كان الطفلان يلعبان لعبة الركض بصورة دائرية على مقدم الرصيف دائماً. قال:

ـ لم يبق لدينا إلاوقت قصير، فالمصانع تغلق أبوابها بعد ربع ساعة. نعم أعتقد تماماً أنهما بدأا الحديث في مقهى، إن لم يحدث ذلك في مكان آخر. لعلهما تحدثا عن الموقف الدولي ومخاطر الحرب أو عن أي شيء آخر. ربما نستطيع أن نشرب قدحاً آخر من النبيذ قبل أن تعودي إلى جادة البحر.

خدمتهما صاحبة المقهى وهي مستمرة في صمتها، ربما بشيء من الفظاظة. لكنهما لم يلتفتا إليها.

ـ في نهاية هذا الممشى الطويل ـ كانت آن ديباريد تتكلم بتمهل ـ

توجد كوّة مركب لها زجاج تواجه الجادة وتصفعها الريح مباشرة. في السنة الماضية وأثناء عاصفة هوجاء تكسر الزجاج وقد حدث ذلك ليلاً.

استندت بظهرها إلى كرسيها وضحكت:

ـ أن يحدث ذلك بالضبط في هذه المدينة.. آه، كيف يمكن الاعتياد على هذه الفكرة!

ـ إنها مدينة صغيرة حقاً. لا يكاد يبلغ سكانها مجموع عمال ثلاثة مصانع.

تألق جدار مؤخر القاعة بأشعة الشمس الغاربة وارتسم في وسطه ثقب أسود بظليهما المترافقين.

قالت آن ديباريد:

ـ إذن لقد تكلما وتكلما وقتاً طويلاً، طويلاً قبل أن يصلا إلى ذلك.

ـ أعتقد أنهما قضيا سوية وقتاً طويلاً لأجل أن يصلا إلى المرحلة التي كانا فيها . نعم حدثيني.

اعترفت قائلة:

ـ لم أعد أعرف.

ابتسم لها بكيفية مشجعة:

ـ ما أهمية ذلك؟

تكلمت من جديد بمثابرة وبشبه صعوبة وبصورة بطيئة للغاية.

ـ يبدو لي أن هذا البيت الذي كنا نتحدث عنه شيّد بكيفية اعتباطية وأنت تفهم ما أعني. لكن أخذت بعين الاعتبار مع ذلك الراحة التي يجب أن يتمتع بها كل واحد.

ـ توجد في الطابق الأرضي قاعات تقام فيها كل سنة، حوالي نهاية شهر مايس، حفلات استقبال لمجموعة عمال المسابك.

دوت صفارة الإنذار كالصاعقة. فنهضت صاحبة المقهى من كرسيها ووضعت سردها الأحمر في مكانه وغسلت أقداحاً أحدثت صريراً تحت الماء البارد.

ـ كنت ترتدين ثوباً أسود مكشوف الرقبة والكتفين للغاية. كنت تنظرين إلينا بلطف وبعدم اكتراث وكان الجو حاراً.

لم تصب بدهشة وتهربت مخادعة. قالت آن ديباريد:

ـ الربيع جميل بصورة غير مألوفة وكل الناس يتحدثون عنه منذ الآن. هل تعتقد مع ذلك بأنها هي التي بدأت بالحديث عنه، تجرأت على الحديث عنه ثم اتخذاه موضوعاً فيما بينهما بعد ذلك كما يحدث في الأمور الأخرى؟

ــ لا أعرف شيئاً آخر غير الذي تعرفين. لعلهما لم يتخذاه موضوعاً إلا مرة واحدة أو ربما كان موضوع حديثهما كل يوم. كيف نستطيع معرفة ذلك؟ لكن الشيء الأكيد هو أنهما توصلا سوية بصورة مضبوطة للغاية إلى النتيجة التي كانا عندها قبل ثلاثة أيام، وهي أنهما سوية لم يعودا يعرفان أبداً ماذا يفعلان.

رفع يده وجعلها تسقط قرب يدها على المنضدة وتركها هناك. لاحظت هاتين اليدين الموضوعتين جنباً إلى جنب لأول مرة. وتذمرت قائلة:

ـ ها أنا قد شربت مرة أخرى كمية زائدة من النبيذ.

ـ هذا الممشى الكبير الذي تحدثتِ عنه، يبقى مضاء أحياناً حتى ساعة متأخرة.

ـ يحدث لي أن لا أستطيع النوم.

ـ لماذا تضيئين هذا الممشى أيضاً لا غرفتك فقط؟

ـ عادة اعتدتها. لا أعرف لماذا بالضبط.

ـ لا شيء يحدث فيه أثناء الليل. لا شيء.

ـ بلى. طفلي ينام وراء أحد الأبواب.

أعادت ذراعيها نحو المنضدة وقعّرت كتفيها كأنها تشعر ببرد وعدّلت سترتها.

ـ لعلي يجب أن أعود الآن. انظر كم الوقت متأخر.

رفع يده وأشار إليها أن تمكث فترة أخرى فبقيت.

ـ عندما يطلع النهار، عند الفجر، تذهبين وتنظرين عبر الكوة ذات الزجاج.

ـ في الصيف يبدأ عمال مصنع الأسلحة بالمرور حوالي الساعة السادسة. وفي الشتاء يركب أكثرهم الباص بسبب الريح والبرد، وهذا لا يستمر إلا ربع ساعة.

ـ ألاْ يمر أحد ابداً أثناء الليل. أبداً؟

ـ بلى. أحياناً راكب دراجة ويتساءل الإنسان من أين جاء ، هل جُنّ هذا الرجل بسبب الألم الذي عاناه لأنه قتلها، لأنها ماتت أم أن شيئاً آخر إنضاف من مسافة قصية إلى هذا الألم. شيئاً آخر يجهله الناس بصورة عامة؟

ـ لا شك أن شيئاً آخر إنضاف بالفعل إلى ألمه، شيئاً آخر لا نزال نجهله.

نهضت. نهضت ببطء كأن أحداً رفعها من مكانها وعدّلت سترتها من جديد. لم يساعدها على ذلك وقد وقفت في مواجهته وهو لا يزال جالساً لا يتفوه بشيء. دخل الرجال الأول إلى المقهى واندهشوا ونظروا إلى صاحبة المقهى مستفهمين. إلا أن هذه جاوبتهم بحركة خفيفة من كتفيها تعني أنها نفسها لا تفهم شيئاً كثيراً.

ـ لعلك لن تعودي مرة أخرى.

عندما نهض بدوره وانتصب واقفاً لم يسع آن ديباريد إلا أن تلاحظ بأنه كان لا يزال شاباً وأن الغروب يتلاعب في عينيه بنفس الصفاء الذي يتلاعب به في عيني طفل. وتفرست خلال نظره في مادتها الزرقاء.

ـ لم يخطر ببالي أني قد أستطيع عدم المجيء بعد الآن.

استوقفها للمرة الأخيرة.

ـ إنك غالباً ما تنظرين إلى هؤلاء الرجال وهم يذهبون إلى مصنع الأسلحة، خاصة في الصيف وأثناء الليل عندما يصعب عليك النوم. لا شك أن ذكراهم تعود إليك أحياناً.

فاعترفت آن ديباريد قائلة:

ـ إني أنظر إليهم عندما أستيقظ بصورة مبكرة. وأحياناً أيضاً، نعم، تعود إليّ ذكرى بعضهم خلال الليل.

في اللحظة التي افترقا فيها وفد رجال آخرون على الرصيف. لا شك أن هؤلاء جاءوا من مسابك الساحل التي كانت أكثر بعداً عن المدينة من

مصنع الأسلحة. كان المساء أقل ظلمة مما كان عليه قبل ثلاثة أيام وكانت هنالك نوارس في المساء التي عادت فأصبحت زرقاء.

أعلن الطفل:

ـ لقد استمتعت باللعب كثيراً.

تركته يروي لها ألعابه حتى تجاوزا الحوض الأول الذي يمتد ابتداء من جادة البحر بدون أي إنحناء حتى كثبان الرمال التي تحدد نهايته. عيل صبر الطفل فقالت له:

ـ ماذا بك؟

مع هبوط الشفق بدأت ريح البحر تكتسح المدينة وقد شعرت ببرد:

ـ لا أدري. أشعر ببرد.

أخذ الطفل يد أمه وبعد أن فتحها أخفى فيها يده بتصميم لا ينثني. احتوت يداها يده كلها وقالت آن ديباريد وهي تكاد تصرخ:

ـ آه، يا حبيبي.

ـ إنك تذهبين دائماً إلى هذه المقهى الآن.

ـ مرتين.

ـ لكنك ستذهبين إليها مرة أخرى؟

ـ أعتقد.

قابلا أشخاصاً يعودون إلى بيوتهم وهم يحملون في يدهم كراسي تُطوى. كانت الريح تهب مواجهة.

ـ وأنا ماذا ستشترين لي؟

ـ زورقاً أحمر ذا محرك. هل ترغب في ذلك؟

راز الطفل هذا المستقبل بصمت وتنهد مسروراً.

ـ نعم. زورق أحمر كبير ذو محرك. كيف عثرت على ذلك؟

أخذته من كتفيه وعندما حاول التخلص منها أمسكت به وصارا يركضان إلى الأمام.

ـ إنك تزداد طولاً. أنت، آه، كم يزداد طولك! وكم أجد هذا الأمر رائعاً!

4

في اليوم التالي اقتادت آن ديباريد طفلها مرة أخرى إلى الميناء. كان الطقس لا يزال جميلاً وهو أكثر برودة بقليل من اليوم السابق. وكانت فترات الصحو أقل ندرة وأكثر طولاً. وفي المدينة كان هذا الجو الصحو بصورة مبكرة للغاية يثير التعليقات والأحاديث. فبعضهم يعبّر عن خوفه من انتهائه في اليوم التالي لأنه استمر فترة غير اعتيادية. والبعض الآخر يطمئن نفسه مدعياً بأن الريح الباردة التي تهب على المدينة تبقي السماء في حالة غير مستقرة وهي ستمنعها فترة أخرى من أن تتلبد بالغيوم.

اجتازت آن ديباريد هذا الجو وهذه الريح ووصلت إلى الميناء بعد أن تجاوزت رصيف الحاجز الأول وحوض جرارات السفن، وهي النقطة التي تمتد منها المدينة وتنفتح نحو حيها الصناعي الواسع، وقفت أيضاً عند المشرب بينما كان الرجل بانتظارها منذ الآن في القاعة وهو لا شك لم يتخلص حتى الآن من رسميات لقاءاتهما الأولى فبقي متقيداً بها بصورة غريزية.

طلبت نبيذاً فعاودتها حالة الخوف التي كانت تشعر بها. ولاحظت صاحبة المقهى التي كانت تحوك سردها الأحمر خلف المشرب أنهما لا يجتمعان إلا بعد فترة طويلة من دخولها المقهى، وأنَ تجاهل كل منهما

للآخر استمر فترة أطول أيضاً من اليوم السابق. لقد استمر حتى بعد أن لحق الطفل بصديقه الجديد. طلبت آن ديباريد قائلة:

ـ أريد قدحاً آخر من النبيذ.

قدّم لها ما طلبت مع شيء من الاستهجان. ومع ذلك فعندما نهض الرجل وسار نحوها وقادها إلى الظل الخفيف في خلفية القاعة، كانت رجفة يديها قد خفت قبل ذلك وعاد وجهها إلى شحوبه المعتاد.

أوضحت قائلة:

ـ لم أتعود السير بعيداً عن داري مثل هذا البعد. ولكن ليس هذا هو الخوف بل هو بالأحرى كما يبدو لي نوع من الدهشة. شيء كأنه الدهشة.

ـ من الممكن أن يكون الخوف.

وأضاف الرجل ضاحكاً:

ـ سيعرف الناس ذلك. في المدينة يُعرف كل شيء بنفس الكيفية.

صرخ الطفل في الخارج معبراً عن سروره لأن جرارتين وصلتا إلى الحوض جنباً إلى جنب. وابتسمت آن ديباريد وأنهت جملته:

ـ بأني أشرب النبيذ برفقتك ـ وضحكت فجأة مقهقهة ـ مالي أشعر اليوم بمثل هذه الرغبة في الضحك؟

اقترب بوجهه منها ووضع يديه مقابل يديها على المنضدة وكف عن الضحك معها.

ـ كان القمر بدراً تقريباً هذه الليلة وكان من الممكن رؤية حديقتك بوضوح وكم هي مصانة مرتبة صقيلة كأنها مرآة. كان الوقت متأخراً وكان الممشى الرئيسي في الطابق الأول لا يزال مضاء.

ـ لقد قلت لك بأني أجد صعوبة في النوم بعض الأحيان.

تظاهر بأنه يعبث بإدارة قدحه في يده لتسهيل الأمور عليها وليترك لها حرية النظر إليه ملياً كما تصور أنها تريد ذلك. ونظرت إليه ملياً. طالبت بلهجة نائحة كأنها أصيبت بأذى:

ـ أريد أن أشرب قليلاً من النبيذ. لم أكن أعرف أن عادة شربه تتكون بمثل هذه السرعة. حقاً إنها تكاد تلازمني منذ الآن.

طلب النبيذ وشرباه سوية بنهم ولكن لم يكن هنالك ما يدفع آن ديباريد إلى الشرب هذه المرة سوى ميلها الناشيء للإنتشاء بهذا النبيذ. تمهلت لحظة بعد أن شربته ثم عاودت طرح الأسئلة على هذا الرجل بصوت حلو مذنب ينم عن الاعتذار.

ـ أود أن تقول لي الآن كيف انتهيا إلى أنهما لم يعودا حتى يتبادلا الكلام.

وصل الطفل ووقف في إطار الباب، وبعد أن اطمأن إلى أنها لا تزال موجودة هنا، انصرف من جديد.

ـ لا أعرف شيئاً. لعل ذلك حدث بواسطة فترات الصمت الطويلة التي كانت تنقض عليها ليلاً ثم في أي وقت كان بعد ذلك والتي أصبحا أقل فأقل قدرة على التغلب عليها بأي شيء. أي شيء.

نفس الاضطراب الذي أغلق عيني آن ديباريد في اليوم السابق جعلها تحني كتفيها تحت تأثير الإرهاق.

ـ ذات ليلة بدأا يدوران ويدوران في الغرفة وصارا مثل وحشين حبيسين لا يعرفان ماذا يحدث لهما. بدأا يشكان في الأمر وشعرا بالخوف.

ـ لم يعد هنالك ما يرضيهما.

ـ كانا مرهقين بما يحدث لهما ولم يكونا يعرفان الإفصاح عنه في الحال. لعلهما احتاجا إلى أشهر عديدة لمعرفته.

انتظر لحظة قبل أن يكلمها من جديد وشرب قدحاً كاملاً من النبيذ وبينما كان يشرب مرّ الغروب في عينيه المرفوعيتن بنفس دقة المصادفة. ورأت هي ذلك. قال:

ـ أمام نافذة معينة في الطابق الأول توجد شجرة زان أجدها واحدة من أجمل أشجار الحديقة.

ـ غرفتي. إنها غرفة واسعة.

كان فمه رطباً بعد شربه النبيذ وقد ارتسمت عليه بدوره في الضياء الحلو دقة لا ترحم.

ـ يقال إنها غرفة هادئة وهي أحسن الغرف.

ـ في الصيف كانت شجرة الزان هذه تحجب عني البحر فطلبت في أحد الأيام أن ترفع من هذا المكان وأن تقطع. لعلي لم ألح على ذلك بصورة كافية.

حاول أن يرى الساعة فوق المشرب.

ـ بعد ربع ساعة تحل لحظة انتهاء العمل وستعودين بعد ذلك بسرعة كبيرة. إننا حقاً لا نتمتع إلا بوقت قصير للغاية. أعتقد أنه لا أهمية لأن تكون شجرة الزان موجودة هناك أم لا. لو كنت في محلك لتركتها تنمو مع ظلها الذي يصبح كل سنة أكثر كثافة نوعاً ما، على جدران هذه الغرفة التي تسمى غرفتك كما تصورت ذلك خطأ.

استندت بكل أعلى جسمها إلى الكرسي بحركة كاملة تكاد تكون مبتذلة وحادث عنه. ثم احتجت بلطف:

ـ لكن ظلها يصبح أحياناً كالحبر الأسود.

ـ اعتقد أنه لا بأس في ذلك.

قدم لها قدحاً من النبيذ وهو يضحك.

ـ كانت هذه المرأة قد أصبحت سكيرة وكان الناس يرونها مساءً في بارات الجهة الأخرى من مصنع الأسلحة وهي فاقدة الوعي لشدة سكرها. كانوا يوجهون إليها اللوم كثيراً.

تظاهرت آن ديباريد بدهشة مبالغ فيها.

ـ كنت أتوقع ذلك لكن ليس إلى هذه الدرجة. لعل ذلك كان ضرورياً في حالتهما هذه.

ـ أنا مثلك لا أعرف ذلك بصورة جيدة. حدثيني.

بحثت عن كلماتها بعيداً وقالت:

ـ نعم، يحدث أيضاً في بعض الأحيان أن يمر في جادة البحر أيام السبت واحد.. أو اثنان من السكارى. يغنون بصوت مرتفع ويلقون خطابات. يذهبون حتى كثبان الرمل عند آخر مصباح ويعودون دون أن يكفوا عن الغناء وهم بصورة عامة يمرون في ساعة متأخرة عندما يكون جميع الناس قد ناموا. أنهم يضلون طريقهم بشجاعة في هذا القسم المقفر من المدينة.

ـ إنك مضطجعة في هذه الغرفة الكبيرة الهادئة للغاية وانت تسمعينهم.

يسود هذه الغرفة اختلال عرضي ليس خاصاً بك بصورة شخصية. كنت مضطجعة فيها وكنت هكذا.

انكمشت آن ديباريد وأُصيبت بالوهن كما اعتادت على ذلك أحياناً. زايلها صوتها وعاودتها ارتجافة يدها قليلاً. قالت:

ـ سيمدون هذه الجادة إلى وراء كثبان الرمل والناس يتحدثون عن مشروع قريب.

ـ كنتِ مضطجعة فيها ولم يكن أحد يعرف ذلك. بعد عشر دقائق يعلن انتهاء العمل.

قالت آن ديباريد:

ـ كنت أعرف ذلك و... خلال السنين الأخيرة في أية ساعة من الساعات كنت أعرفه دائماً...

ـ نائمة أم مستيقظة وفي لباس محتشم أم لا كانوا يصرفون النظر عن وجودك.

ناضلت آن ديباريد للدفاع عن نفسها باعتبارها مذنبة مع قبولها بذلك وقالت:

ـ لا يتوجب عليك ذلك. إني اتذكر. كل شيء يمكن أن يحدث...

ـ نعم.

لم تعد تكف عن النظر إلى فمه الذي بقي وحده مغموراً ببقايا ضوء النهار.

ـ من الممكن أن يخطئ الإنسان بشأن هذه الحديقة إذا نظر إليها من

بعيد ورآها مغلقة بالشكل الذي هي عليه، بمواجهة البحر، وفي أجمل حي في المدينة. في شهر حزيران من السنة الماضية.

ـ ستمضي سنته بعد بضعة أيام ـ كنت تقفين بمواجهتها على مدرج المدخل على استعداد لاستقبالنا نحن مجموعة عمال المسابك. كانت هنالك فوق نهديك وهما نصف عاريين زهرة بيضاء من أزهار المنجوليا. إني ادعى شوفان.

استعادت هيأتها المعتادة أمامه وهي مستندة إلى المنضدة وكان وجهها يبدو عليه الانفعال منذ الآن بتأثير النبيذ.

ـ كنت أعرف ذلك. وأعرف أيضاً بأنك تركت العمل في المسابك دون أن تقدم أسباباً وأنك لن تستطيع أن تتحاشى العودة إليها وشيكاً بعد أن لم يعد بوسع أي معمل آخر في المدينة استخدامك.

ـ حدثيني مرة أخرى. فعما قليل لن أعود أطلب منك أي شيء.

بدأت آن ديباريد بأن تلت بصورة مدرسية تقريباً درساً لم تكن قد تعلمته أبداً.

ـ عندما سكنتُ هذا البيت كانت جنبات الربّاط موجودة هناك وكان يوجد منها الكثير. عندما تقترب العاصفة تحدث صريفاً كصريف الفولاذ. وبصدد اعتيادي على هذا البيت فأستطيع القول إني اعتدت عليه كما يعتاد الإنسان على سماع قلبه. ما قالته عن هذه المرأة غير صحيح بأنهم كانوا يجدونها في بارات حي مصنع الأسلحة فاقدة الوعي لشدة سكرها.

دوت صفارة الإنذار بصوت متساو محكم يصم آذان المدينة كلها،

ففحصت صاحبة المقهى ساعتها ووضعت سردها الأحمر في مكانه. وتكلم شوفان بصوت هادئ كأنه لم يسمع شيئاً.

ـ كثير من النساء عشن قبلاً في نفس هذا اليت وكن يسمعن خلال الليل صريف جنبات الربّاط بدل دقات قلوبهنّ. كانت هذه الشجيرات موجودة هناك دائماً. لقد مات هؤلاء النسوة جميعاً في غُرفهنّ خلف شجرة الزان التي كفت عن النمو بخلاف ما تتصورين.

ـ هذا غير صحيح وهو يشابه تماماً ما قلته عن هذه المرأة التي تشرب كل مساء حتى تفقد وعيها.

ـ إني أوافقك على ذلك. لكن هذا البيت كبير بدرجة هائلة. إنه يغطي مئات الأمتار المربعة وهو قديم بدرجة يمكن معها افتراض كل شيء. لا بد أن يحدث أن يشعر الإنسان فيه بالخوف.

حطمها نفس الاضطراب وجعلها تغلق عينيها. نهضت صاحبة المقهى وتحركت في مكانها وغسلت بالماء بعض الأقداح.

ـ أسرعي في الكلام. اختلقي.

قامت بمجهود وتكلّمت بصوت يكاد يكون عالياً في المقهى الذي ما زال مقفراً.

ـ ما يلزم هو أن يقيم الإنسان في مدينة لا أشجار فيها. إن الأشجار تصرخ عندما تهب الريح. وهنا توجد رياح دائماً، دائماً عدا يومين في السنة. لو كنت بدلك لرحلت عن هذا المكان ولما بقيت فيه. جميع الطيور أو جميعها تقريباً هي طيور بحرية يجدها الناس ميتة بعد العاصفة. وعندما تهدأ العاصفة وتكف الأشجار عن الصراخ، عندئذ نسمع هذه

الطيور تصرخ على الساحل كأنها حيوانات مذبوحة وهذا الصراخ يمنع الأطفال من النوم. كلا، لو كنت مكانك لرحلت.

توقفت عن الكلام وعيناها ما تزالان مغلقتين بتأثير الخوف. نظر إليها بانتباه كبير وقال:

ـ لعلنا أخطأنا في تصورنا. لعله شعر برغبة سريعة جداً في قتلها منذ المرات الأولى التي رآها فيها. كلميني.

لم تستطع ذلك وعادت يداها إلى الارتجاف ولكن لسبب آخر غير الخوف والاضطراب الذي كان يبعثه فيها كل تلميح إلى وجودها. عندئذ تكلم مكانها بصوت عاد فأصبح هادئاً من جديد:

ـ صحيح أن الإنسان يشعر وكأنه يختنق عندما تكف الريح عن الهبوب، لندرة ما يحدث ذلك. لقد لاحظت هذا الأمر قبل الآن.

لم تكن آن ديباريد تصغي إلى ما يقول. قالت:

ـ كانت ميتة لكنها ما زالت تبتسم فرحاً.

انفجرت في الخارج صرخات وضحكات أطفال كانوا يحيون المساء كأنه فجر، وفي الجهة الجنوبية من المدينة ارتفعت صرخات أخرى تناوبت مع دوي المسابك المكتوم، لكن هذه كانت صرخات أشخاص بالغين يعربون عن بهجتهم بالحرية. واصلت آن ديباريد كلامها بصوت متعب:

ـ يعود النسيم دائماً.. ولا أدري إذا ما كنت قد لاحظت أنه يعود بصورة مختلفة حسب الأيام. أحياناً فجأة خاصة عند غروب الشمس وأحياناً أخرى على العكس بصورة بطيئة للغاية، ولكن هذا لا يحدث إلا عندما يكون الطقس حاراً جداً وفي آخر الليل حوالي الساعة الرابعة

صباحاً عند الفجر. عندئذ تبدأ جنبات الرباط صراخها. أتفهم؟ وهكذا أشعر بذلك.

ـ إنك تعرفين كل شيء عن هذه الحديقة وحدها التي تكاد تكون مشابهة تماماً لباقي حدائق جادة البحر. عندما تصرخ جنبات الرباط في الصيف تغلقين نافذتك لتتحاشي سماعها وأنت عارية بسبب شدة الحر.

رجته آن ديباريد قائلة:

ـ أريد نبيذاً. أريد منه باستمرار...

طلب النبيذ. وقد نبهتهما صاحبة المقهى وهي تقدم لهما النبيذ:

ـ دقت الساعة منذ عشر دقائق.

وصل الرجل الأول وشرب نفس النبيذ على المشرب. وواصلت آن ديباريد كلامها بصوت هامس:

ـ في الزاوية اليسرى من البوابة الخارجية، نحو الجهة الشمالية توجد شجرة زان أرجوانية أمريكية. لا أعرف أبداً لماذا...

تعرف الرجل الواقف على البار على شوفان وأشار له برأسه إشارة فيها شيء من التضايق، لكن شوفان لم يره. قال:

ـ كلميني أيضاً. بوسعك أن تقولي أي شيء مهما كان.

برز الطفل مختلّ الشعر لاهث الأنفاس ورجعَّت الشوارع المؤدية إلى مقدم هذا الرصيف خطوات رجال. قال الطفل:

ـ ماما.

وقال شوفان:

ـ ستنصرف بعد دقيقتين.

حاول الرجل الواقف على البار مداعبة شعر الطفل أثناء مروره، لكن هذا هرب منه بتوحش.

قالت آن ديباريد:

ـ وفي ذات يوم رزقت بهذا الطفل.

فاجأ المقهى بالدخول حوالي عشرة عمال وقد تعرف بعضهم على شوفان لكنه لم يرهم أيضاً. واصلت آن ديباريد:

ـ يحدث أحياناً عندما ينام هذا الطفل أن أنزل مساء إلى هذه الحديقة أتجول فيها. أذهب إلى البوابة الخارجية وأنظر إلى الجادة. في المساء يكون الهدوء تاماً خاصة أثناء فصل الشتاء. وفي الصيف يمر أحياناً بعض الأزواج وهم متعانقون ثم يعودون وهذا هو كل شيء. اخترنا هذا البيت لأنه هادىء. أهدأ بيت في المدينة. يجب أن أنصرف.

ارتد شوفان على كرسيه إلى الوراء من دون استعجال:

ـ تذهبين إلى البوابة الكبيرة ثم تتركينها ثم تدورين دورة حول البيت ثم تعودين مرة أخرى إلى البوابة الخارجية. والطفل ينام فوق. لم يحدث لك أبداً أن صرخت. أبداً.

أعادت ارتداء سترتها من دون أن تجيب وقد ساعدها على ذلك. نهضت ثم بقيت مرة أخرى واقفة هنا إلى جانبه قرب المنضدة وهي تحدق النظر في الرجال الواقفين عند المشرب من دون أن تراهم.

حاول بعضهم أن يجلب انتباه شوفان بإشارة منه لكن ذلك كان عبثاً. كان ينظر إلى الرصيف.

أخيراً نفضت آن ديباريد عنهاخمولها وقالت:

ـ سوف أعود.

ـ غداً.

رافقها إلى الباب وكانت هنالك جماعات من الرجال تصل وعليهم علامات الاستعجال. كان الطفل يتبعهم ثم ركض نحو أمه وأخذ يدها وجرها بحزم فتبعته.

روى لها أنه تعرّف على صديق جديد ولم يستغرب أنها لم تكن تجبه. وقف بمواجهة الساحل المقفر ـ كان الوقت متأخراً أكثر من اليوم السابق ـ ليرى الأمواج وهي تلطم الرصيف ببعض الشدة في هذا المساء. ثم انطلق من جديد.

ـ تعالي.

تابعت حركته ثم انطلقت بدورها. قال متباكياً:

ـ إنك تسيرين ببطء بينما الطقس بارد.

ـ لا أستطيع أن أسير أسرع من هذا.

أسرعت الخطى قدر ما تستطيع وكان الليل والتعب والطفولة قد جعلته يشد نفسه إليها، أمه، فسارا سوية هكذا. ولما وجدت أنها لا ترى الأشياء عن بعد بوضوح بسبب سكرها، تحاشت النظر نحو نهاية جادة البحر لكي لا تترك الوهن يصيب عزمها بسبب مثل هذه المسافة الطويلة.

5

قالت آن ديباريد:

ـ ستتذكر ذلك. هذا يعني رَسْلاً وشَذْواً.

فكرّر الطفل:

ـ رَسْلاً وشَذْواً.

بينما كان السلّم يتصاعد وفي نفس الوقت ارتفعت مرافع في السماء نحو جنوب المدينة وكانت جميعها تتحرك حركات مماثلة ذات أزمان مختلفة تتقاطع فيما بينها.

ـ لا أريد أن توبِّخ وإلا فإني أموت حزناً.

ـ أنا أيضاً لا أريد ذلك. رَسْلاً وشَذْواً.

مرّت أمام نافذة الطابق الأخيرة مجرافة عملاقة يتناثر منها رمل مبلل وأسنانها الوحشية الجائعة مطبقة على فريستها.

ـ الموسيقى ضرورية ولا بد لك أن تتعلمها. هل فهمت؟

ـ نعم أفهم.

كانت شقة الآنسة جيرو في الطابق الخامس من العمارة وهي عالية

بدرجة تفتح أمام نوافذها مجالات واسعة تطل من بعيد على البحر. وفيما عدا طيران النوارس لم يكن هناك إذن ما يرتسم أمام عيون الأطفال.

ـ هل عرفتِ إذن ما حدث؟ جريمة عاطفية. نعم. اجلسي أرجوك يا مدام ديباريد.

سأل الطفل:

ـ ماذا كان ذلك؟

فقالت الآنسة جيرو:

ـ اعزف السوناتينة بسرعة.

جلس الطفل أمام البيانو واستقرت الآنسة جيرو قربه وقلمها في يدها. أما آن ديباريد فقد جلست على انفراد قرب النافذة.

ـ السوناتينة. سوناتينة ديابيلي الجميلة الرائعة هذه. أبدأ. من أي وزن هي هذه السوناتينة الجميلة؟ أجب.

انكمش الطفل حال سماعه نبرة هذا الصوت. وبدا عليه أنه يفكر ثم تمهل وربما كذب وقال:

ـ رَسْلاً وشَدْواً.

شبكت الآنسة جيرو ذراعيها ونظرت إليه وهي تتنهد.

ـ إنه يفعل ذلك متعمداً. لا يوجد تفسير آخر.

لم يتململ الطفل. كان ينتظر نهاية عذابه ويداه الصغيرتان المضمومتان موضوعتان على ركبتيه ولم يكن راضياً إلا عن حتمية تكرر هذا العذاب بدافع منه.

قالت آن ديباريد:

ـ النهار يطول بصورة محسوسة.

قالت الآنسة جيرو:

ـ فعلاً.

كانت تشهد بذلك الشمس وقد بدت عالية أكثر مما كانت عليه في المرة الأخيرة في مثل هذا الوقت. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت ساعات النهار بدرجة من الصحو جعلت نوعاً من الضباب يغطي السماء. كان خفيفاً لكنه سابق لأوانه.

ـ إني انتظر أن تجيبني على ذلك.

ـ لعله لم يسمع.

ـ لقد سمع بصورة جيدة. إنك يا مدام ديباريد لا تفهمين أبداً شيئاً معيناً وهو أنه يفعل ذلك عمداً.

أدار الطفل رأسه قليلاً نحو النافذة وبقي هكذا بانحراف ينظر إلى الجدار وقد عكس البحر عليه تموج الشمس. كانت أمه وحدها التي تستطيع رؤية عينيه.

قالت بصوت هامس:

ـ يا خجلي الصغير. يا كنزي الثمين.

قال الطفل من دون أن يبذل مجهوداً ومن دون أن يتحرك:

ـ أربعة أزمنة.

كانت عيناه هذا المساء بلون السماء تقريباً لولا أن ذهب شعره كان يتراقص في أعماقها. قالت الأم:

ـ سيعرف ذلك في يوم من الأيام وسيقوله بدون تردد. هذا أمر محتوم. سيعرف ذلك حتى لو لم يرده.

ضحكت بجذل وبصمت. وقالت الآنسة جيرو:

ـ يجب أن تشعري بالخجل منه يا مدام ديباريد.

ـ يقولون لي ذلك.

بسطت الآنسة جيرو ذراعيها وضربت ملامس البيانو بقلمها كما اعتادت أن تفعل ذلك منذ ثلاثين عاماً من التعليم وصرخت:

ـ سلم الأنغام. لنعد إلى سلم الأنغام مدة عشر دقائق لتعليمك ذلك. أبدأ بنغم دو ماجور.

عاد الطفل فجلس أمام البيانو. ارتفعت يداه سوية واستقرتا بانقياد منتصر، فطغت على ضجة البحر أنغام من سلم الدو ماجور.

ـ مرة أخرى، مرة أخرى. هذه هي الطريقة الوحيدة.

بدأ الطفل من جديد من النقطة التي انطلق منها لأول مرة وبنفس الدقة المطلوبة. وارتفع سلم ثان وثالث من أنغام الدوماجور تدوي في غضب هذه السيدة.

ـ قلت لمدة عشر دقائق. مرة أخرى.

التفت الطفل نحو الآنسة جيرو ونظر إليها بينما بقيت يداه متروكتين باسترخاء على ملامس البيانو.

سأل قائلاً:

ـ لماذا؟

فاتخذ وجه الآنسة جيرو شكلاً قبيحاً لدرجة جعلت الطفل يلتفت نحو البيانو. وضع من جديد يديه في مكانهما وتسمر في هيئة مدرسية بدت ممتازة لكنه لم يتسأنف العزف.

ـ حقاً إنه يتجاوز جميع الحدود.

قالت الأم وهي تضحك من جديد:

ـ إنهم لم يطلبوا منا الحياة وها نحن نعلمهم البيانو بالإضافة إلى ذلك.

رفعت الآنسة جيرو كتفيها ولم تجب هذه المرأة مباشرة. لم تجب أحداً بصورة شخصية واستعادت هدوءها وقالت لنفسها فقط:

ـ شيء غريب. أن ينتهي الأطفال بالإنسان إلى أن يصبح شريراً.

قالت آن ديباريد بلهجة حاولت أن تجعلها معزية:

ـ لكنه في أحد الأيام سيتعلم سلالم الأنغام أيضاً. سيعرفها ويتقنها كما أتقن الوزن. هذا أمر محتوم. أنه سيضجر منها لفرط ما يعرفها.

صرخت الآنسة جيرو:

ـ التربية التي تعطينها له يا سيدتي شيء مريع.

أخذت بإحدى يديها رأس الطفل وأدارته وحركته وأجبرته على رؤيتها، فغض الطفل طرفه.

ـ لأني قررت ذلك. إنه وقح بالإضافة إلى كل هذا. من فضلك صول ماجور ثلاث مرات. وقبل ذلك دوماجور مرة أخرى أيضاً.

بدأ الطفل السلم من نغم دوماجور وقد عزفه بلا مبالاة كالمرات السابقة ثم انتظر من جديد.

ـ قلت صول ماجور أيضاً. الآن صول ماجور.

انسحبت اليدان من ملامس البيانو وانحنى الرأس بإصرار واحتكت القدمان الصغيرتان المتأرجحتان الواحدة بالأخرى في حدة الغضب وهما ما تزالان بعيدتين جداً عن الدواستين.

ـ لعلك لم تسمع؟

قالت الأم:

ـ لقد سمعت. إني متأكدة من ذلك.

إزاء حنان هذا الصوت لم يقاوم الطفل فترة أخرى. رفع يديه مرة أخرى من دون أن يجيب ووضعهما على ملامس البيانو في الموضع المحدد الذي كان يجب أن يبدأ منه. ارتفع سلم ثم سلمان من أنغام الصول ماجور يشدوان بحب الأم. ومن جهة مصنع الأسلحة أعلنت صفارة الإنذار نهاية العمل. ضعف النور قليلاً. وكانت سلالم الأنغام من الدقة والكمال بحيث اقتنعت السيدة. قالت:

ـ بالإضافة إلى تقوية خلقه سيمرن هذا أصابعه.

قالت الأم بحزن.

ـ هذا صحيح.

لكن الطفل توقف من جديد قبل نهاية السلم الثالث من أنغام الصول ماجور.

ـ قلت ثلاث مرات. ثلاث..

في هذه المرة سحب الطفل يديه من ملامس البيانو ووضعهما على ركبته وقال:

ـ لا.

مالت الشمس بشكل جعل البحر يضاء بانحراف دفعة واحدة. وسيطر على الآنسة جيرو هدوء غامر:

ـ لا أستطيع أن أقول لك إلا شيئاً واحداً: هو أني أرثي لك.

ألقى الطفل خلسة نظرة على هذه المرأة الجديرة بالشفقة والتي كانت تضحك ثم بقي مسمراً في مكانه مديراً ظهره بالضرورة نحو البحر. كان المساء قد لاحت تباشيره واجتاز الغرفة بصورة مضادة نسيم هب فجأة فعبث بشعر الطفل العنيد بحيث جعله يرتجف كالعشب. وطفقت القدمان الصغيرتان ترقصان تحت البيانو بصمت وبضربات سريعة.

قالت الأم ضاحكة:

ـ ماذا يهمك أن تعزف سلماً واحداً من الأنغام مرة أكثر، مرة واحدة أكثر؟

التفت الطفل نحوها وحدها.

ـ لا أحب سلالم الأنغام.

نظرت الآنسة جيرو إليهما، كليهما بالتناوب، من دون أن تسمع كلامهما وقد أوهن عزمها السخط نفسه.

ـ أما أنا فأنتظر.

عاد الطفل فجلس في مواجهة البيانو ولكن بصورة منحرفة وبأبعد ما يستطيع عن هذه السيدة. قالت الأم:

ـ حبيبي، مرة أخرى أيضاً.

رَفَّت أهدابه تحت تأثير هذا النداء ومع ذلك تردد فترة أخرى.

ـ سلالم الأنغام مرة أخرى. هيا!

ـ بالضبط سلالم الأنغام.

تردد، ثم في اللحظة التي شعرتا فيها بيأس كامل اتخذ قراره وصار يعزف. إلا أن العزلة اليائسة التي غرقت فيها الآنسة جيرو استمرت بنفس الدرجة لحظة من الوقت.

ـ لاحظي أيتها السيدة ديباريد. لا أدري عما إذا كنت سأستطيع الاستمرار على تدريسه.

كان سلم أنغام الصول ماجور متقناً مرة أخرى. لعله كانت هذه المرة أكثر سرعة من المرة السابقة لكن بصورة تكاد تكون غير محسوسة. قالت الأم:

ـ إنها سوء نية من جانبه. أنا أتفق معك على ذلك.

انتهى سلم الأنغام ونهض الطفل من مقعده بخفة وهو يبدي عدم اكتراث كامل لما يجري حوله، وحاول محاولة مستحيلة هي أن يلمح ما كان يجري في الأسفل على الرصيف. قالت الأم وهي تتظاهر بالندم.

ـ سأشرح له بأن ذلك أمر ضروري.

فأجابت الآنسة جيرو بلهجة خطابية متكدرة:

ـ لا يتوجب عليك أن تشرحي له أي شيء. ليس من شأنه أن يختار تعلم البيانو أم لا. وهذا أيتها السيدة ديباريد هو ما يسمى بالتربية.

ضربت البيانو فأقلع الطفل عن محاولته. قالت وعليها علامات الكلل:

ـ الآن أعزف سوناتينتك أربع مرات.

عزفها الطفل كما عزف سلالم الأنغام وكان يعرفها بصورة جيدة. رغم سوء نيته كانت موسيقاه حاضرة بصورة لا يمكن إنكارها. واصلت الآنسة جيرو كلامها:

ـ ماذا تريدين، هنالك أطفال يضطر الإنسان أن يكون قاسياً معهم للغاية بعد تعلم السوناتينة وإلا فلا ننتهي إلى نتيجة.

قالت آن ديباريد:

ـ سأحاول.

أصغت إلى السوناتينة التي كانت تأتي إليها من أعماق الأجيال يحملها إليها طفلها. خيل إليها أنها توشك في أغلب الأحيان كلما سمعتها أي تصاب بالإغماء.

ـ أرجو أن تلاحظي أنه يعتقد أن من المسموح له ألا يحب عزف البيانو. لكني أعـرف جيــداً أيتها السيدة ديباريد بأن قولي هذا لن يلاقي آذاناً صاغية.

ـ سأحاول.

رَنَّت السوناتينة مرة أخرى وكان هذا المتوحش يحملها بإرادته أم رغماً عنه كالريشة، وانقضت من جديد على أمه وحكمت عليها مرة أخرى بلعنة حبها وأقفلت أبواب الجحيم من جديد.

ـ أبدأ مرة أخرى بإيقاع واضح. ليكن عزفك أكثر بطأ هذه المرة.

تباطأ العزف معلناً بوضوح فترات التوقف واستسلم الطفل إلى حلاوة عزفه. وتبجست الموسيقى وسالت من بين أصابعه من دون أن

يبدو عليه أنه يريد ذلك ويتعمده وانتشرت بتكتم في العالم مرة أخرى أيضاً هي تغمر القلب بالمجهول وتضنيه وقد سمعها المارة في الأسفل على الرصيف.

قالت صاحبة المقهى:

ـ لم يمض إلا شهر على مجيئه فوق. إن موسيقاه جميلة.

وفدت على المقهى الجماعة الأولى من الرجال واستأنفت صاحبة المقهى قائلة:

ـ نعم مضى شهر كامل. وأنا أحفظ هذه القطعة عن ظهر قلب.

كان شوفان مرة أخرى الزبون الوحيد في طرف البار. نظر إلى الساعة وتمطي ارتياحاً وترنم بألحان السوناتينة في نفس الوقت الذي كان الطفل يعزفها فيه. تفرست فيه صاحبة المقهى وهي تخرج أقداحها من أسفل المشرب وقالت:

ـ إنك شاب.

قدرت الزمن الذي بقي لها قبل أن تصل المقهى أول جماعة من الزبائن ونبهته قائلة بسرعة وبلطف:

ـ في بعض الأحيان وعندما يكون الطقس صحوا يبدو لي أنها تقوم بجولتها في الجهة الأخرى بمحاذاة الحوض الثاني وأنها لا تمر هنا كل مرة.

فقال الرجل ضاحكاً:

ـ لا.

اجتازت الباب جماعة من الرجال. وقالت الآنسة جيرو وهي تعدّ:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. هذا حسن.

كانت السوناتينة تتدفق تحت يدي الطفل ـ الشارد الفكر ـ ، كانت تتدفق وتنمو من جديد محمولة بعدم مهارته اللامكترثة حتى أقصى قوتها ومداها. وكان ضوء النهار يتناقص بصورة محسوسة كلما أكتمل تركيبها. برزت في الأفق شبه جزيرة هائلة من الغيوم المشتعلة التي كان سناها الهش العابر يصرف الفكر رغما عنه نحو مسالك أخرى. بعد عشر دقائق سيتلاشى فعلاً وبصورة تامة في الجو كل لون من ألوان النهار. أنهى الطفل مهمته للمرة الثالثة وتصاعد إلى الغرفة صَخَب البحر ممزوجاً بأصوات الرجال الذين كانوا يصلون إلى الرصيف. قالت الآنسة جيرو:

ـ غيباً. في المرة القادمة يجب أن تعزف ذلك غيباً. أتفهم؟

ـ غيباً، حسن.

قالت الأم:

ـ أعدك بذلك.

ـ يجب أن يتغير هذا الوضع. إنه يسخر مني وهذا أمر واضح للعيان.

ـ أعدك بذلك.

فكرت الآنسة جيرو من دون أن تصغي وقالت:

ـ يمكننا أن نجرب أن يصحبه شخص آخر غيرك إلى دروس البيانو أيتها السيدة ديباريد، وسنرى النتيجة التي تؤدي إليها هذه المحاولة.

صرخ الطفل:

ـ كلا.

وقالت آن ديباريد:

ـ اعتقد أن من الصعب عليّ تحمل ذلك.

فقالت الآنسة جيرو:

ـ أخشى كثيراً أن نضطر رغم كل شيء إلى فعل ذلك.

توقف الطفل في السلم حالما أغلقت الباب.

ـ أرأيت؟ إنها شريرة.

ـ هل فعلتَ ذلك عمداً؟

تأمل الطفل حشد المرافع جميعه وقد بدا الآن ثابتاً في قلب السماء، وفي البعد تلألأت ضواحي المدينة. قال الطفل:

ـ لا أعرف.

ـ كم أحبك!

نزل الطفل ببطء فجأة.

ـ لم أعد أرغب في تعلم البيانو.

فقالت آن ديباريد:

ـ سلالم الأنغام، لم أعرفها أنا في يوم من الأيام. كيف العمل بخلاف ذلك؟

6

لم تدخل آن ديباريد وتوقفت عند باب المقهى، فجاء شوفان نحوها، وعندما وصل قربها التفتت نحو جادة البحر وقالت متذمرة:

ـ كم المقهى مزدحم منذ الآن! دروس البيانو هذه تنتهي بصورة متأخرة.

قال شوفان:

ـ سمعت هذا الدرس.

حرّر الطفل يده وانطلق على الرصيف وهو متشوّق للركض كما يفعل كل مرة في مثل هذه الساعة من مساء الجمعة. رفع شوفان رأسه نحو السماء التي كانت ما تزال مغمورة بضوء خفيف وقد بدت زرقاء قاتمة، واقترب منها فبقيت هي لا تتراجع.

قال:

ـ اقترب الصيف. هيا تعالي.

ـ لكننا في هذه المناطق لا نكاد نشعر به.

ـ بلى. في بعض الأحيان كما تعلمين. هذا المساء.

كان الطفل يقفز فوق بعض الحبال وهو يغني سوناتينة ديابيلي واقتفت آن ديباريد خطوات شوفان.

كان المقهى مزدحماً بالناس وكان الرجال يشربون نبيذهم حالما يُقدّم لهم كأنهم ينفّذون واجباً معيناً ثم ينصرفون إلى بيوتهم مسرعين، وكان يحل محلهم رجال آخرون قدموا من محارف أكثر بُعداً. حالما دخلت آن ديباريد المقهى أجفلت وبقيت واقفة قرب الباب فالتفت شوفان نحوها وابتسم لها مشجعاً. وصلا إلى طرف من المشرب لا يلفت النظر وشربت قدح نبيذها بسرعة فائقة كما يفعل الرجال وكان القدح يرتجف في يدها. قال شوفان:

ـ مضت الآن سبعة أيام.

قالت وكأنها تتفوه بذلك بدون تروّي:

ـ سبع ليال. كم هو لذيذ هذا النبيذ!

كرّر شوفان:

ـ سبع ليال.

تركا المشرب واقتادها إلى نهاية القاعة وأجلسها في المكان الذي يرغب فيه. كان هنالك على البار أشخاص ينظرون أيضاً إلى هذه المرأة وكانوا يستغربون أيضاً، ولكن من بعيد. كانت القاعة هادئة.

ـ إذن لقد سمعت كل سلالم الأنغام، هذه التي تضطره إلى عزفها.

ـ كان الوقت مبكّراً ولم يكن هنالك بعد أي واحد من الزبائن. لابدّ وأن النوافذ كانت مفتوحة على الرصيف. لقد سمعت كل شيء، حتى سلالم الأنغام.

ابتسمت له معترفة بالجميل وشربت من جديد ولم تعد يداها ترتجفان على القدح إلاّ بصورة غير محسوسة.

ـ حشوت رأسي بفكرة هي أنه لا بد أن يتعلّم الموسيقى. أتفهم؟ منذ سنتين.

ـ نعم أفهم. وماذا حلّ بهذا البيانو الكبير المنتصب على اليسار عند مدخل الصالون؟

ـ نعم. ـ وشدّت آن ديباريد قبضتيها وأجبرت نفسها على الهدوء
ـ لكنه لا يزال صغير السن. صغير السن لو تعرف إلى درجة تجعلني أتساءل عندما أفكّر في ذلك عمّا إذا لم أكن مخطئة.

ضحك شوفان. كانا لا يزالان يجلسان وحدهما إلى المنضدة في نهاية القاعة وكان عدد الزبائن على المشرب يتناقص باستمرار.

ـ هل تدرين بأنه يعزف سلالم الأنغام بصورة متقنة؟

ضحكت آن ديباريد هي أيضاً بأعلى صوتها هذه المرة.

ـ صحيح أنه يعزفها. حتى هذه المرأة تقرّ بذلك. إني كما ترى أتوهّم بعض الأشياء. آه.. بوسعي أن أضحك لذلك...

وبينما كانت لا تزال مستغرقة في الضحك ـ رغم أن ضحكاتها بدأت تخف تدريجياً ـ كلّمها شوفان بطريقة أخرى.

ـ كنتِ مستندة بمرفقك إلى هذا البيانو الكبير وكانت هنالك بين نهديك، تحت ثوبك، زهرة المنجوليا هذه.

أصغت آن ديباريد بانتباه تام إلى هذه الحكاية.

ـ نعم.

ـ عندما تنحنين كانت هذه الزهرة تمس محيط نهديك الخارجي. كنتِ قد شبكتها بإهمال بدبوس في مكان مرتفع وكانت هي زهرة كبيرة الحجم اخترتِها كيفما اتفق. كانت كبيرة الحجم بإفراط بالنسبة لك وكانت تويجاتها ما تزال متماسكة وقد بلغت تماماً في الليلة السابقة أوج تفتّحها وازدهارها.

ـ هل كنتُ أنظر إلى الخارج؟

ـ اشربي أيضاً قليلاً من النبيذ. إن الطفل يلعب في الحديقة وأنت تنظرين إلى الخارج. نعم.

شربت آن ديباريد كما طلب منها ذلك وحاولت أن تتذكّر ثم عادت من محاولتها بدهشة عميقة.

ـ لا أتذكّر أني قطفت هذه الزهرة ولا أني كنت أحملها.

ـ كنتُ بالكاد أنظر إليك لكني وجدت متسعاً من الوقت لرؤيتها أيضاً.

انشغلت بالإمساك بالقدح بقوة وأصبحت بطيئة في حركاتها وفي صوتها.

ـ كم أحب النبيذ. لم أكن أعرف.

ـ الآن حدثيني.

قالت آن ديباريد متوسلة:

ـ آه، دعني.

ـ الوقت الذي بحوزتنا قصير لدرجة لا أريد ذلك.

كان الشفق قد اقترب من نهايته لدرجة جعلت سقف المقهى وحده هو الذي يتلقى شيئاً من الضوء. كان المشرب قد أنير بشده بينما كانت القاعة غارقة في الظل. برز الطفل راكضاً ولم يدهــش لتأخّـر الوقت بل أعلن قائلاً:

ـ وصل الصبي الآخر.

في اللحظة التي أعقبت ذهابه اقتربت يدا شوفان من يدي آن ديباريد. كانت الأيدي الأربعة ممددة على المنضدة.

ـ كما قلت لك في بعض الأحيان أجد صعوبة في النوم فأذهب إلى غرفته وأنظر إليه فترة طويلة.

ـ في بعض الأحيان أيضاً؟

ـ في بعض الأحيان أيضاً خلال فصل الصيف يكون هنالك بعض المتنزهين في الجادة. مساء السبت بصورة خاصة، لأن الناس ولا شك لا يعرفون ماذا يصنعون بأنفسهم في هذه المدينة.

قال شوفان:

ـ من دون شك. خاصة الرجال. وأنت تنظرين إليهم في أغلب الأحيان من هذا الممشى أو من حديقتك أو من غرفتك.

انحنت آن ديباريد وأخبرته بذلك أخيراً:

ـ في الواقع أعتقد أني أنظر إليهم في غالب الأحيان إما من الممشى أو من غرفتي في بعض الأمسيات عندما لا أعرف ماذا أصنع بنفسي.

تفوّه شوفان بكلمة بصوت منخفض فتلاشى نظر آن ديباريد ببطء تحت تأثير الإهانة وغرق في النوم.

ـ استمري.

ـ فيما عدا مرور الناس فإن حوادث النهار تتكرّر في ساعات ثابتة. لا أستطيع الاستمرار.

ـ لدينا وقت قصير للغاية. استمري.

ـ وجبات الطعام تعود دائماً. والأمسيات. في أحد الأيام خطر ببالي دروس البيانو هذه.

أنهيا نبيذهما فطلب شوفان المزيد منه وتناقص أيضاً عدد الرجال على المشرب. شربت آن ديباريد من جديد كأنها عشطى ونبهتهما صاحبة المقهى قائلة:

ـ الساعة منذ الآن السابعة.

لم يسمعاها. وأقبل الليل. دخل أربعة رجال إلى القاعة الخلفية وكان هؤلاء مصممين على قتل الوقت. أعلم الراديو الحاضرين ما ستكون عليه حالة الطقس في اليوم التالي.

ـ كنت أقول لك أنّ فكرة إعطاء دروس البيانو لهذا المخلوق العزيز خطرت لي في الطرف الآخر من المدينة والآن لم يعد بوسعي تحاشيها. ما أصعب هذا الأمر. أترى، الساعة منذ الآن السابعة.

ـ ستصلين إلى هذا بصورة متأخرة أكثر من المعتاد. ستصلين إليه متأخرة وربما متأخرة أكثر من اللازم. هذا أمر لا يمكن تحاشيه. تعوّدي على هذه الفكرة.

لا يمكن تحاشي الساعات المحددة سابقاً. كيف يمكن العمل بشكل آخر؟ أستطيع أن أقول لك بأني متأخرة منذ الآن بالنسبة لساعة العشاء إذا أخذت بنظر الاعتبار الطريق كله الذي يجب أن أقطعه. ثم أني كدت أنسى، بأنه توجد في البيت هذا المساء حفلة استقبال يجب أن أحضرها.

- هل تعرفين بأنه لن يكون بوسعك إلا أن تصلي البيت متأخرة. هل تعرفين ذلك؟

- أعرف، ليس بإمكاني أن أفعل خلاف ذلك.

انتظر فحدّثته بلهجة تفصح عن تسلية هادئة:

- بوسعي أن أقول لك بأني حدّثت طفلي عن جميع هؤلاء النساء اللواتي عشن خلف شجرة الزان هذه واللواتي هنّ ميّتات الآن، ميّتات. وطلب مني أن يراهن. لقد أخبرتك كما ترى بكل ما بوسعي إخبارك به.

- هل ندمتِ في الحال لأنك حدثتيه عن هؤلاء النسوة وعندئذ رويت له كيف سيقضي العطلة هذه السنة، بعد بضعة أيام، على ساحل بحرٍ آخر غير هذا البحر؟

- دعوته أن يقضي العطلة في بلاد حاره على ساحل البحر بعد خمسة عشر يوماً. كان شديد الحزن لموت هؤلاء النساء.

شربت آن ديباريد نبيذها من جديد ووجدته شديد المفعول فتندت عيناها بسبب ذلك بينما كان فمها يبتسم. قال شوفان.

- الوقت يمضي وأنت تتأخرين أكثر فأكثر.

قالت آن ديباريد:

ـ عندما يكون التأخّر من الخطورة بالدرجة التي بلغها بالنسبة لي الآن فأعتقد أن نتائجه لن تتغيّر سواء إنْ ازداد أم لا.

لم يبقَ قرب المشرب إلا زبون واحد بينما كان الأربعة الآخرون يتحدّثون في القاعة بصورة متناوبة. وصل زوجان فقدّمت لهما صاحبة المقهى ما طلبا وأستأنفت حياكه سردها الأحمر الذي كانت قد تركته جانباً حتى الآن بسبب الازدحام. خفضت صوت الراديو فسمع دوي البحر من خلال الأغاني وكان البحر هائجاً نوعاً ما هذا المساء وهو يلتطم بأمواجه بالأرصفة.

ـ ابتداءً من اللحظة التي فهم فيها ما تريد أن يفعله، لماذا لم يفعله.. مثلاً فيما بعد بقليل أو قبل ذلك بقليل؟ أود أن تقول لي ذلك.

ـ أنت تعلمين بأني لا أعرف أشياء كثيرة. لكني أعتقد أنه لم يكن يستطيع الانتهاء إلى تفضيل حلٍ على آخر. كان يريدها حية بقدر ما كان يريدها ميتة ولا بد أنه لم يفلح في اختيارها ميتة إلا بصورة متأخرة جداً. لا أعرف شيئاً.

انطوت آن ديباريد على نفسها وكان وجهها منحنياً إلى الأسفل بمكر لكنه شاحب اللون.

ـ كان أملها كبيراً بأنه سينتهي إلى ذلك.

ـ يبدو لي أن أمله في الانتهاء إلى ذلك كان ولا شكّ يناظر أملها. لا أعرف شيئاً.

ـ نظيره حقاً؟

ـ نعم نظيره. اسكتي.

انصرف الرجال الأربعة وبقي الزوجان في محلهما صامتين. تثاءبت المرأة وطلب شوفان دورق نبيذ آخر.

ـ لو لم نشرب هذه الكمية لما كان الأمر ممكناً.

فغمغمت آن ديباريد:

ـ أعتقد أنه لن يكون ممكناً.

شربت قدحها جرعة واحدة فتركها تسمّم جسدها كما تريد. كان الليل قد خيّم على المدينة بصورة تامة وأضيئت الأرصفة بمصابيحها العالية. كان الطفل لا يزال يلعب ولم يعد في السماء أثر لأي نور من أنوار الشفق. التمست آن ديباريد قائلة:

ـ لو كان بوسعك أن تقول لي قبل أن أعود. أود كثيراً أن أعرف المزيد عن ذلك حتى لو لم تكن متأكداً بأنك لا تعرف الأمر جيداً.

روى لها شوفان ببطء وبصوت محايد كانت تجهله هذه المرأة حتى الآن:

ـ كانا يسكنان بيتاً منعزلاً أعتقد أنه على ساحل البحر. كان الجو حاراً ولم يكونا يعرفان قبل الذهاب إليه أنهما سينتهيان إلى هذه النتيجة بهذه السرعة وبأنه بعد أيام سيضطر إلى طردها مرات عديدة. لقد اضطر بسرعة كبيرة إلى طردها، بعيداً عنه وحتى عن البيت، مرات عديدة.

ـ لم تكن هنالك حاجة لذلك.

ـ لا شك أنه من العسير تحاشي هذا النوع من الأفكار ولا بد أنها تصبح عادة لدى الإنسان كعادة الأكل. مجرد عادة فقط.

ـ وهي، هل كانت تنصرف؟

ـ كانت تذهب كلما أراد ذلك وبالصورة التي يرغب فيها، رغم أنها كانت تميل إلى البقاء.

أمعنت آن ديباريد النظر في هذا الرجل المجهول من دون أن تتعرّف عليه كما يترصّد الإنسان حيواناً ثم قالت ملتمسة:

ـ أرجوك.

ـ ثم حلّ الزمن الذي تغيّر فيه كل شيء فصار عندما ينظر إليها أحياناً لا يراها كما كان قد رآها حتى تلك اللحظة. لم تعد جميلة أو قبيحة، فتية أو عجوزاً بحيث يمكن مقارنتها بأي شخص حتى بنفسها. أحسّ بالخوف وكان ذلك في نهاية العطلة ثم جاء الشتاء. ستعودين إلى جادة البحر وستكون هذه الليلة الثامنة.

عاد الطفل وضمّ نفسه إلى أمه لحظة من الوقت. كان لا يزال يترنّم بسوناتينه ديابيلي، فداعبت شعره قرب وجهه وقد شرد فكرها تماماً. تحاشى الرجل النظر إليهما ثم انصرف الطفل.

استأنفت آن ديباريد حديثها بتمهل:

ـ كان هذا البيت إذن منعزلاً للغاية وكان الجو حاراً كما تقول وكانت عندما يطلب إليها أن تنصرف تطيعه دائماً. كانت تنام تحت الأشجار، في الحقول، كأنها ...

قال شوفان:

ـ نعم.

ـ كانت تعود عندما يدعوها إلى ذلك وبنفس الطريقة كانت تذهب عندما يطردها. إن إطاعتها له بهذا الشكل كانت طريقة خاصة بها في

الأمل. حتى عندما تصل إلى عتبة الباب كانت تنظر أيضاً أن يسمح لها بالدخول.

ـ نعم.

أمالت آن ديباريد وجهها المشدوه نحو شوفان ولم تصل إليه فتراجع شوفان.

ـ هنالك، في هذا البيت تعلّمت أن تصبح ما قلته، ربما مثلاً...

فأوقفها شوفان مرة أخرى قائلاً:

ـ نعم. كلبة.

تراجعت بدورها وملأ قدحها وناولها إياه. قال:

ـ كنت أكذب.

أعادت النظام إلى شعرها مزيلة الفوضى العميقة التي كانت تسوده واستعادت حواسها بكلل وحنوّ مكبوت وقالت:

ـ لا.

لاحظت بانتباه شديد على ضوء النيون في القاعة التقبض اللاإنساني الذي ارتسم على وجه شوفانٍ ولم تستطع إشباع عينيها من رؤية ذلك. ظهر الطفل للمرة الأخيرة قادماً من الرصيف وأعلن قائلاً:

ـ الآن صار الوقت ليلاً

تثاءب طويلاً بمواجهة الباب ثم التفت نحوها لكنه بقي في مكانه في مأمن وهو يترنّم.

ـ انظر كم الوقت متأخر. كلْمني أيضاً، بسرعة.

ـ ثم جاء الزمن الذي اعتقد فيه أنه لم يعد يستطيع ملامستها إلا من أجل أن...

رفعت آن ديباريد يديها نحو رقبتها العارية في فتحة ثوبها الصيفي.

ـ هنا، أليس كذلك؟

ـ هنا. نعم.

وافقت اليدان بتعقّل على ترك مكانها ونزلتا بعد أن كفتا عن ملامسة الرقبة.

غمغم شوفان:

ـ أود أن تنصرفي.

نهضت آن ديباريد من كرسيها ووقفت في منتصف القاعة من دون حراك بينما بقي شوفان جالساً مرهقاً كأنه لا يعرفها. تخلت صاحبة المقهى بصورة لا تقاوم عن سرد حياكتها الأحمر وراقبتهما كلا الاثنين بتطفل لم يتبيناه وكان الطفل هو الذي جاء من الباب وأخذ يد أمه.

ـ هيا بنا. تعالي.

كانت جادة البحر مضاءة وكان الوقت متأخراً كثيراً عن المعتاد، بساعة على الأقل. غنى الطفل السوناتينة للمرة الأخيرة ثم أصابه الكلل منها. كانت الشوارع تكاد تكون مقفرة وقد بدأ الناس منذ الآن بتناول العشاء. وبعد أن اجتاز الحاجز الأول وارتسمت أمامهما جادة البحر بكل امتدادها توقفت آن ديباريد وقالت:

ـ إني تعبة للغاية.

فاحتج الطفل متباكياً:

ـ لكني أنا جائع.

رأى أنّ عينيّ هذه المرأة، أمه، تلمعان فلم يعد يتذمّر من أي شيء.

ـ لماذا تبكين؟

ـ يمكن أن يحدث هذا الأمر هكذا، من دون سبب.

ـ لا أريد ذلك.

ـ انتهى ذلك يا عزيزي. صدقني.

مشى وصار يجري أمامها ثم عاد أدراجه وقد أمتعه أن يلهو أثناء الليل وهو أمر لم يعتد عليه. قال:

ـ في الليل تبدو البيوت بعيدة.

7

وصل سمك السلموك مجمداً في شكله الطبيعي على طبق فضي ساهمت في شرائه ثلاثة أجيال. كان يحمله رجل يرتدي ملابس سوداء وقفاقيز بيضاء وقد قدّمه في صمت العشاء المبتدئ إلى كل واحد من الحاضرين كأنه ابن أحد الملوك. من اللائق عدم الحديث عنه.

كانت المنجوليا تبعث أريجها من الطرف الشمالي للمنتزه فيطوف من كثب إلى آخر حتى يتلاشى. كانت الريح هذا المساء تهب من الجنوب وكان هنالك رجل يتجوّل في جادة البحر وامرأة تعرف بذلك. مرّ السلمون من مدعو لآخر وفق طقوس معينة لا يعكرها أي شيء عدا خوف مستتر لدى كل واحد من أن ينهار مثل هذا الكمال فجأة أو أن يشوبه دنس من اللامعقول الواضح للعيان. وفي الخارج في المنتزه كانت المنجوليا تعدّ إزهارها الفاجع في ليلة مظلمة من ليالي الربيع الوليد.

ومع ارتداد الريح التي كانت تروح وتغدو وتلتطم بحواجز المدينة ثم تنطلق من جديد، كان الأريج يبلغ الرجل ثم يتركه بصورة متناوبة. وفي المطبخ انتهى بعض النساء من إعداد الأطعمة التالية وكان جبينهن يتفصّد عرقاً وهنّ يسلخن بطّاً أرقدنه في كفنه المصنوع من قطع البرتقال. في هذه الأثناء كان سلمون مياه المحيط الحرة وقد بدا وردياً عسلياً

لكنه مشوّه الشكل منذ الآن خلال الفترة القصيرة التي مرّت عليه، يتابع سيره المحتوم نحو زواله الكامل.

وفي نفس الوقت كان الخوف من طروء خلل في الرسميات التي ترافق ازدراده يتلاشى شيئاً فشيئاً. كان هنالك رجل يجلس إزاء امرأة وهو ينظر إلى هذه المجهولة. كان نهداها نصف عاريين من جديد وقد عدّلت ثوبها بسرعة وكانت هنالك زهرة تذبل بينهما. كان لا يزال يمرّ في عينيها المتسعتين المتطرفتين بريق صحو كاف لكي تتوصل إلى أن تتناول بدورها كمية من السلمون الذي تركه لها الآخرون. في المطبخ تجاسروا أخيراً على التفوّه بذلك بعد أُعد البط وتُرِك على البار خلال فترة الإمهال التي أعقبت إعداده، إنها تبالغ. لقد وصلت هذا المساء بصورة متأخرة أكثر من يوم أمس، بعد فترة طويلة من وصول مدعويها.

كانوا خمسة عشر هؤلاء الذين انتظروها قبل قليل في قاعة الطابق الأرضي الكبيرة. دخلت هذا العالم المتلألئ وتوجهت نحو البيانو الكبير واتكأت عليه بمرفقها ولم تعتذر أبداً. اعتذروا بدلاً عنها.

ـ آن متأخرة. أرجو إعذارها.

لم تثر لغطاً حولها منذ عشر سنوات. وإذا كانت فظاظتها تضنيها فهي لا تستطيع تصوّر ذلك. كانت هنالك ابتسامة ثابتة تجعل وجهها مقبولاً.

ـ لم تسمع آن.

وضعت شوكتها ونظرت حولها ثم أجهدت نفسها وحاولت السير نحو عالية الحديث لكنها فشلت في ذلك. قالت:

ـ هذا صحيح.

كرروا الكلام. فأمرَّت يدها بخفة في الفوضى الشقراء التي تسود شعرها كما فعلت قبل قليل في مكان آخر. كانت شفتاها شاحبتين وقد نسيت تجميلهما هذا المساء. قالت:

ـ أرجو المعذرة. في الوقت الحاضر سوناتينة صغيرة لديابيلي.

ـ سوناتينة، منذ الآن؟

ـ منذ الآن.

أطبق الصمت من جديد على السؤال الملقى، أما هي فعادت إلى ثبات ابتسامتها، حيوان في غابة.

ـ ألم يكن يعرف موديراتو كانتابيل؟

ـ لم يكن يعرف.

سيتم إزهار المنجوليا هذا المساء عدا تلك التي اقتطفتها مساء عند عودتها من الميناء. إن الزمن يجري بصورة لا تغيّر فيها بالنسبة لهذا الإزهار المنسيّ.

ـ هذا المخلوق العزيز كيف يمكن أن يحرز ذلك؟

ـ لم يكن يستطيع.

ـ لعله ينام الآن.

ـ نعم. إنه نائم.

بدأ هضم ما كان يدعى سابقاً بالسلمون ببطء وكان تناضحه مع هذا الصنف الذي أكله تاماً لا يشوبه أي خلل. أما الآخر فكان ينتظر متلفعاً بحرارة إنسانية على كفنه المصنوع من قطع البرتقال. ها هو القمر يطلع

على البحر وعلى الرجل الممدّد وقد أصبح من الممكن بصعوبة الآن أن يتبيّن الناظر عند الاقتضاء كتل الليل وأشكاله من خلال الستائر البيض. انقطعت السيدة ديباريد عن الحديث.

ـ إن الآنسة جيرو التي تعطي أيضاً كما تعرفون دروساً لولدي الصغير روت لي يوم أمس هذه الحكاية.

ـ آه نعم.

ضحكوا وكانت هنالك امرأة، في مكان ما حول المائدة. ازدادت جوقة الأحاديث وعلا صوتها شيئاً فشيئاً وفي هذه المزايدة المتدرجة من المجهودات والابتكارات انبثق مجتمع تافه لا صفات له. كانت تتكشف فيه علامات وتفتح صدوع وتجرّب مؤالفات ثم آل بهم الأمر شيئاً فشيئاً إلى حديث عام متحيّز ومحايد بوجه خاص. ستكون السهرة ناجحة. النساء في ذروة تألقهن وقد أغدق الرجال عليهن الحلي والمجوهرات كل حسب ميزانيته. عدا واحد منهم كان يشك في هذا المساء بأنه كان على صواب فيما فعل.

كانت الطيور في المنتزه المغلق بإحكام تنام نوماً هادئاً مريحاً لأن الطقس استمر على صحوه.

وكطفل يكرّر نفس العمل مرّ السلمون من جديد وقد صغر شكله أيضاً. التهمته النسوة حتى آخره وكان لأكتافهن العارية بريق ومتانة مجتمع شُيّدت قواعده على الثقة بحقوقه وقد اختزن بحيث يكنَّ موافقات لهذا المجتمع. كانت صرامة تربيتهن تقتضي أن تخفف شراهتهن بالاهتمام الكبير الذي يوجهنه لصيانتهن. وقد أدخل في أذهانهن قديماً الشعور بهذه

الصيانة. كنّ يتلمظن بالمايونيز وهو أخضر كما يجب أن يكون ويهتدين خلال هذا التلمّظ إلى أنفسهن ويجدن فيه فائدتهن. وكان الرجال ينظرون إليهن ويتذكرون بأنهن سبب سعادتهم.

في هذا المساء كانت واحدة منهن تخالف الشهية العامة. كانت قد جاءت من الطرف الآخر من المدينة من خلف الحواجز ومستودعات الزيت في مقابل جادة البحر هذه، من هذه الحدود الخارجية التي فتحت لها منذ عشر سنوات، وفي ذلك المكان قدّم لها رجل نبيذاً حتى درجة فقدان الرشد. والآن وقد تغذّت بهذا النبيذ وشذّت عن القاعدة أصبح الأكل يضنيها. وراء الستائر البيضاء يسود الليل وفي قلب هذا الليل كان هنالك رجل وحيد ـ لا يزال لديه متسع من الوقت ـ ينظر مرة إلى البحر ومرة إلى المنتزه ثم إلى البحر والمنتزه ويديه وهو لا يأكل. لم يكن بوسعه هو الآخر أيضاً تغذية جسمه المعذّب بنوع آخر من الجوع. كان عطر المنجوليا لا يزال يصله حسب مشيئة الريح ويدهشة ويضايقه كما لو كان عطر زهرة واحدة. وفي الطابق الأول انطفأت قبل قليل نافذة مضيئة ولم يعد إليها الضياء مرة ثانية. لا شك أنهم أغلقوا زجاجها من هذه الجهة خوفاً من الرائحة المفرطة التي تفوح بها الأزهار في الليل. شربت آن ديباريد ولم ينقطع الشرب واستمر نبيذ (البومار) يخلّف هذا الطعم المتلاشي، طعم شفتين مجهولتين لرجل الشارع.

غادر الرجل جادة البحر وقام بجولة حول المنتزه ونظر إليه من الكثبان التي تحدده من الشمال ثم عاد ونزل المنحدر من جديد. نزل حتى وصل إلى الساحل الرملي فتمدّد عليه من جديد في نفس المكان الذي كان فيه. تمطّى وبقي ساكناً فترة من الوقت مقابل البحر ثم استدار على نفسه ونظر

مرة أخرى إلى الستائر البيضاء أمام الكوّات المضاءة. بعد ذلك نهض ثانية وأخذ حصاة سدّدها نحو واحدة من هذه الكوّات ثم استدار من جديد ورمى الحصاة في البحر وتمدّد وتمطّى أيضاً ثم لفظ اسماً بصوت مسموع.

كانت هنالك امرأتان تعدّان القسم الثاني من أدوات المائدة في حركة متتابعة متكاملة. أما الضحية فكانت تنتظر.

ـ آن كما تعلمون مجردة من كل سلاح أمام طفلها.

ابتسمت أكثر، وكرّروا كلامهم فرفعت مرة أخرى يدها نحو شعرها الأشقر المختل النظام. كانت الدائرة الزرقاء تحت عينيها قد كبرت أيضاً. لقد بكت هذا المساء. وبعد قليل حلّت الساعة التي طلع فيها القمر تماماً وغمر بأنواره المدينة وجسد الرجل الممدّد عند ساحل البحر.

قالت: هذا صحيح.

أنزلت يدها من شعرها وتوقفت عند زهرة المنجوليا التي تذبل بين نهديها.

ـ نحن كلنا متماثلات.

فنطقت آن ديباريد قائلة:

ـ نعم.

كانت تويجية المنجوليا ملساء ذات مظهر عارٍ وقد فركتها الأصابع حتى خرقتها ثم توقفت مترددة واستراحت على المائدة وانتظرت واستعادت هدوءاً وهمياً لأنّ الجالسين لمحوا ذلك. حاولت آن ديباريد أن تبتسم ابتسامة اعتذار لعدم استطاعتها أن تفعل خلاف ذلك لكنها كانت ثملة وقد اتخذ وجهها مظهراً خليعاً ينمّ على الاعتراف. ثقل النظر

وقد بدا خالياً من كل تأثر لكنه تجرّد منذ الآن بصورة مؤلمة من كل دهشة. كانوا يتوقعون ذلك دائماً.

شربت آن ديباريد من جديد كأساً كاملة من النبيذ وعيناها نصف مغلقتين. بلغت منذ الآن المرحلة التي لا تستطيع أن تفعل فيها خلاف ذلك. اكتشفت في الشرب تأكيداً لما كان حتّى الآن رغبة غامضة لديها وشعرت بسلوى معينة لهذا الاكتشاف. شربت نساء أخريات بدورهن ورفعن على نفس الشاكلة أذرعهن العارية اللذيذة التي لا شائبة فيها، لكنها أذرع زوجات. وكان الرجل على الساحل الرملي يصفر بأغنية سمعها بعد الظهر في مقهى الميناء.

طلع القمر وحلّت معه بداية ليلة متأخرة باردة. ليس من المستحيل أن يشعر هذا الرجل بالبرد.

قدّموا البط المطبوخ بالبرتقال وبدأت النسوة بتناوله. كانوا قد اختاروهن جميلات بدينات يستطعن مجابهة هذه الكمية من الطعام. تصاعدت من أفواههن غمغمات حلوة لمرأى البط ذي اللون الذهبي وشعرت واحدة منهن أن قواها تخور لرؤيته. كان فمها يابساً بسبب جوع آخر لم يعد بوسع أي شيء إشباعه عدا النبيذ نوعاً ما. عادت إلى ذهنها أغنية سمعتها بعد الظهر في مقهى من مقاهي الميناء لكنها لم تكن تستطيع الترنّم بها. كان جسد الرجل على البلاج ما يزال وحيداً وقد بقي فمه منفرجاً على الاسم الذي تفوه به.

ـ لا ، شكراً.

لم يكن يحط على جفنيه المغمضين شيء سوى الريح وسوى رائحة

المنجوليا التي كانت تهب بموجات قوية غير محسوسة حسب تقلّبات هذه الريح.

رفضت آن ديباريد أن تتناول شيئاً وبقي الطبق مع ذلك أمامها فترة قصيرة للغاية لكنها كافية لإثارة فضيحة. رفعت يدها كما تعلّمت ذلك لتكرّر رفضها فكفّوا عن الإصرار وساد الصمت حولها على المائدة.

ـ إني كما ترون لا أستطيع. وأنا أعتذر عن ذلك.

رفعت يدها مرة أخرى إلى مستوى الزهرة التي تذبل بين نهديها والتي كان عطرها يتخطّى المنتزه وينطلق حتى يصل البحر.

جرؤ أحدهم على القول:

ـ لعل السبب في ذلك هذه الزهرة التي يفوح عطرها بقوة؟

ـ إني معتادة على هذه الأزهار. لا، لا يوجد شيء.

تابع البط مجراه وكان هنالك شخص إزاءها لا يزال ينظر إليها ببرود أعصاب. جرّبت مرة أخرى أن تبتسم لكنها لم تفلح هذه المرة أيضاً إلا في إبداء تكشيرة اعتراف يائسة فاسقة. كانت آن ديباريد ثملة.

سألوها مرة أخرى عمّا إذا لم تكن مريضة. لم تكن مريضة. وألحوا قائلين:

ـ لعلّها هي هذه الزهرة التي تثير القرف خفية؟

ـ لا. إني معتادة على هذه الأزهار. الحقيقة هي أنه يحدث لي أحياناً أن لا أشعر بالجوع.

تركوها وشأنها وابتدأ التهام البط. سيذوب شحمه في أجساد أخرى.

كانت أجفان رجل الشارع المغمضة ترتعش لتحمل هذا المقدار من الصبر وكان جسده المتعب يشعر ببرد لا يمكن أن يدفئه شيء، وقد نطق فمه مرة أخرى باسم معين.

أعلنوا في المطبخ أنها رفضت البط بالبرتقال وأنها مريضة وأنه لا يوجد تفسير آخر. وهنـــا صاروا يتحدّثون عن شيء آخر. الأشكال الفارغة للمنجوليا تداعب عينيّ الرجل الوحيد. وتناولت آن ديباريد مرة أخرى القدح الذي مُلئ قبل قليل وشربت. كانت النار تتأجّج في بطن هذه الساحرة على نقيض الأخريات. كان نهداها الثقيلان للغاية من كل جانب من هذه الوردة الثقيلة يعانيان من هزالها الجديد ويؤلمانها. وجرى النبيذ في فمها المليء باسم لا تنطق به، وكان هذا الحدث الصامت يحطّم حقويها تحطيماً.

نهض الرجل من الساحل الرملي واقترب من البوابة الخارجية. كانت الكوّات لا تزال مضيئة فأمسك بالبوابة بيده وشدَّ عليها. كيف لم يحدث هذا حتى الآن؟

سيمر البط بالبرتقال من جديد، وبنفس الحركة التي قامت بها آن ديباريد قبل قليل ستلتمس منهم نسيانها وسوف ينسونها. عادت إلى ألم حقويها الصامت وإلى حرقتها المؤلمة، إلى ملجأها.

ترك الرجل بوابة المنتزه الخارجية ونظر إلى يديه الفارغتين المشوّهتين بالمجهود. لقد نبت في طرف ذراعيه مصير.

كانت ريح البحر لا تزال تجول في أطراف المدينة وهي الآن أكثر برودة وكان كثير من الناس قد ناموا منذ الآن. لا تزال نوافذ الطابق

الأول مظلمة ومعلّقة في وجه المنجوليا منطوية على نوم الطفل وكانت هناك زوارق حمراء ذات محرّك تطوف خلال ليلته البريئة.

أخذ بعضهم المزيد من البط بالبرتقال وكانت المحادثة قد صارت أسهل فأسهل وهي تزيد قليلاً في كل لحظة من ابتعاد الليل. كانت آن ديباريد صامتة لا تزال تبتسم في أنوار الثريات المتلألئة.

قرّر الرجل أن يرحل إلى نهاية المدينة بعيداً عن هذا المنتزه، وبقدر ابتعاده عنه كانت رائحة المنجوليا تتناقص مخلية المكان لرائحة البحر.

ستتناول آن ديباريد قليلاً من المرطبات بالقهوية ليتركوها وشأنها وسيعود الرجل أدراجه رغماً عنه وسيجد المنجوليا من جديد والبوابة الخارجية والكوات البعيدة مضاءة مرات ومرات.

توجد على شفتيه من جديد هذه الأغنية التي سمعها بعد الظهر وعلى فمه هذا الاسم الذي سينطق به بصوت أعلى قليلاً. سيمر من هنا.

هي، لا تزال تعرف ذلك وقد ذبلت المنجوليا تماماً بين نهديها. لقد اجتازت هذه الزهرة الصيف كله في ساعة من الزمان. سيتحدّى الرجل المنتزه عاجلاً أم آجلاً. لقد مرّ. واستمرت آن ديباريد في حركة من حركاتها التي لا تنتهي تتوسل إلى الزهرة.

ـ لم تسمع آن.

حاولت أن تبتسم أكثر من السابق لكنها لم تعد تتوصل إلى ذلك. كرّروا كلامهم فرفعت يدها مرى أخرى ومرّت بها خلال الفوضى الشقراء المسيطرة على شعرها. توسّعت الدائرة الزرقاء أكثر من ذي قبل تحت عينيها وقد بكت هذا المساء. كرّروا كلامهم لها وانتظروا. قالت:

ـ هذا صحيح. سنسافر إلى منزل على ساحل البحر وسيكون الجو حاراً. منزل بعيد على ساحل البحر.

قالوا:

ـ أيتها المخلوقة العزيزة.

ـ نعم.

بينما سيتفرّق المدعوون بانتظام شاذ في الصالون الكبير المجاور لغرفة الطعام وستتوارى آن ديباريد وتصعد إلى الطابق الأول. ستنظر إلى الجادة من الكوة الكائنة في ممشى حياتها الكبير. سيكون الرجل قد غادرها في تلك اللحظة وستذهب إلى غرفة طفلها وتتمدد على الأرض عند موقع السرير دون أن تراعي هذه المنجوليا التي ستسحقها بنهديها بحيث لا يبقى لها أثر. وبين فترات تنفّس طفلها المقدسة ستقيء هنالك طويلاً الأطعمة الغريبة التي اضطرت إلى تناولها هذا المساء.

عندئذ سيظهر خيال في إطار الباب الذي بقي مفتوحاً على الممشى وسيظلم أكثر من ذي قبل الظل الخفيف المنتشر في الغرفة. ستمر آن ديباريد يدها بخفة في الفوضى الواقعية الشقراء التي تسود شعرها وستتفوه هذه المرة باعتذار. لكنها لن تحظى بجواب.

كان الجو الصحو لا يزال مستمراً وقد تجاوز استمراره جميع الآمال. كان الناس يتحدّثون عنه الآن وهم يبتسمون كما لو كانوا يتكلّمون عن جو مخادع يخفي وراء دوامه شذوذاً معيناً ما يلبث أن يظهر ويعيد الطمأنينة إلى النفوس حول جريان فصول السنة بصورة مألوفة.

في هذا اليوم، حتى إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأيام الأخيرة، كانت

جودة الطقس من الروعة ـ بالنسبة لهذا الفصل طبعاً ـ بحيث كان يخيّل إلى المرء عندما لا تتغطى السماء بغيوم كثيرة وعندما كان الصحو العابر يستمر فترة من الوقت إن الطقس أحسن بكثير مما هو عليه وأنه أكثر تقدماً وأكثر قرباً من فصل الصيف. كانت الغيوم من التهاون والبطء في تغطية الشمس بحيث بدا هذا النهار أكثر صحواً تقريباً من الأيام التي سبقته، خاصة وأن النسيم الذي يرافقه كان بحرياً طرياً يشابه كثيراً النسيم الذي سيهب في بعض الأيام خلال الأشهر القادمة. زعم البعض أن هذا النهار كان حاراً وأنكرت الأغلبية ـ لا روعته ـ بل أن تكون هذه الروعة من الشدة بحيث يكون النهار حاراً. وأما البعض الآخر فلم يكن له رأي في الموضوع.

لم تعد آن ديباريد إلا في اليوم الذي أعقب اليوم التالي من نزهتها الأخيرة في الميناء. وصلت متأخرة قليلاً عمّا هو معتاد وحالما لمحها شوفان من بعيد خلف حاجز الميناء عاد إلى المقهى لانتظارها. كانت بدون طفلها.

دخلت آن ديباريد المقهى خلال فترة صحو طويلة ولم ترفع صاحبة المقهى عينيها نحوها بل استمرت في حياكة سردها الأحمر في الظل الخفيف الذي يخيّم على المشرب وكانت مساحة نسيج حياكتها قد ازدادت منذ الآن. لحقت آن ديباريد بشوفان إلى المنضدة التي كانا قد جلسا إليها في الأيام السابقة في آخر القاعة. ولم يكن شوفان قد حلق وجهه صباحاً بل في اليوم السابق فقط. كان وجه آن ديباريد تنقصه العناية التي تبذلها عادة في تجميله قبل إظهاره للناس. لكنهما لم يلاحظا ذلك.

قال شوفان:

ـ أنت وحيدة.

فوافقت على هذه الحقيقة البدهية بعد فترة طويلة من تفوهه بها وحاولت تجنبها لكنها دهشت أيضاً عندما وجدت أنها لا تستطيع التوصل إلى ذلك.

ـ نعم.

لأجل التخلّص من بساطة هذا الاعتراف الخانقة التفتت نحو باب المقهى، نحو البحر. كانت مسابك الشاطئ تدوي في جنوب المدينة بينما كانت حمولة الرمل والفحم تفرغ في الميناء كالمألوف.

قالت:

ـ الطقس جميل.

بحركة مماثلة لحركتها نظر شوفان إلى الخارج وتفحّص بدون تبصّر الجو، الجو الذي كان سائداً ذلك النهار.

ـ لم أكن أصدّق أن هذا سيأتي بمثل هذه السرعة.

استمر صمتهما لدرجة أن صاحبة المقهى استدارت حول نفسها وفتحت الراديو بدون أي تبرّم، بل بشيء من اللطف. غنّت امرأة في مكان بعيد، في مدينة أجنبية وكانت آن ديباريد هي التي اقتربت من شوفان.

ـ ابتداء من هذا الأسبوع فصاعداً سيقوم آخرون بإيصال طفلي لتلقي دروس البيانو لدى الآنسة جيرو. هذا شيء وافقت أن يقوموا به مكاني.

شربت بقية نبيذها بجرعات صغيرة. كان قدحها فارغاً وقد نسي شوفان أن يطلب كمية أخرى من النبيذ. قال:

ـ لا شك أن ذلك أفضل.

دخل زبون عاطل وحيد، وطلب نبيذاً كذلك. قدّمت له صاحبة

المقهى ما أراد ثم ذهبت لخدمة الشخصين الآخرين في القاعة دون أن يطلبا ذلك. شربا في الحال سوية دون أن يوجه إليها أي كلام. تكلّمت آن ديباريد بصورة مستعجلة. قالت:

ـ في المرة الأخيرة تقيأت هذا النبيذ. لم تمضِ إلا بضعة أيام منذ أن شربت...

ـ لم تعد لذلك أهمية من الآن فصاعداً.

توسلت قائلة.

ـ أرجوك...

ـ في الحقيقة، يجب أن نختار كلامنا وإلا فلا داعي لأن نقول شيئاً. كما تريدين.

تفحّصت المقهى ثم تفحّصته ثم المكان كله ثم هو من جديد فبدا عليه كأنه يلتمس نجدة لم تصل.

ـ حدث لي كثيراً أن تقيأت ولكن لأسباب مختلفة عن هذا السبب. دائماً لأسباب مختلفة جداً. لم أكن معتادة على شرب هذه الكمية من النبيذ مرة واحدة وفي فترة قصيرة كهذه. كما تقيأت! لم يعد بوسعي التوقف عن ذلك وقد تصوّرت أني لن أستطيع التوقف بعد الآن أبداً. ثم حدث فجأة أن الأمر لم يعد ممكناً وكنت قد حاولت ذلك عبثاً. لم تكن إرادتي كافية لتحقيقه.

اتكأ شوفان بمرفقه إلى المنضدة ورأسه بين يديه.

ـ إني تعب.

ملأت آن ديباريد قدحه وناولته إياه فلم يقاوم شوفان. اعتذرت قائلة:

ـ أستطيع أن أسكت.

ـ لا.

وضع يده إلى جانب يدها، على المنضدة، في حاجز الظل الذي يرسمه جسمه.

ـ كان القفل على باب الحديقة كالمعتاد. وكان الجو صحواً مع نسيم خفيف وكانت الكوّات في الطابق الأرضي مضاءة.

وضعت صاحبة المقهى سردها الأحمر جانباً ثم غسلت بعض الأقداح بالماء وللمرة الأولى لم تبال بمعرفة ماذا كانا سيبقيان فترة طويلة أخرى أم لا. دنت ساعة انتهاء العمل فقال شوفان:

ـ لم يعد لدينا وقت طويل.

بدأت الشمس تنخفض فتابع بعينيه جريانها الأشقر البطيء على الجدار في مؤخرة القاعة. قالت آن ديباريد:

ـ هذا الطفل. لم أجد الفرصة لأقول لك...

قال شوفان:

ـ أعرف.

سحبت يدها من فوق المنضدة ونظرت طويلاً إلى يد شوفان التي كانت لا تزال موجودة هناك وكانت ترتجف. ثم أخذت تئن برفق أنيناً متلهفاً ـ غطّى عليه صوت الراديو ـ فلم يسمعه أحد سواه.

ـ أعتقد في بعض الأحيان أني اخترعته...

قال شوفان بفظاظة:

ـ أعرف. فيما يخص هذا الطفل.

استأنفت آن ديباريد أنينها الذي أصبح أكثر شدة ووضعت من جديد يدها على المنضدة. تابع حركتها بعينيه وفهم بعناء ما تريده فرفع يده وكأنها مصنوعة من الرصاص ووضعها على يدها.

كانت يداهما باردتين لدرجة أنهما تلامستا بإبهام وبقصد أن يحدث ذلك فقط، لمجرّد أن يحدث ذلك. وبقيت يداهما هكذا مجمدتين في هيئتهما الجنائزية. ومع ذلك فقد كفّت آن ديباريد عن أنينها. قالت متوسلة:

ـ مرة أخرى. قل لي.

تردد شوفان وعيناه لا تزالان تنظران إلى شيء آخر على جدار نهاية القاعة ثم صمّم أن يقول ذلك كما لو كان يسترجع ذكرى معينة.

ـ لم يحدث له أبداً قبلاً.. قبل أن يصادفها، أن فكر أنه سيشعر بهذه الرغبة في يوم من الأيام.

ـ هل كان قبولها هي كاملاً؟

ـ كان مذهولاً.

رفعت آن ديباريد نحو شوفان نظراً غائباً وأصبح صوتها رقيقاً يكاد يكون طفولياً.

ـ أود أن أفهم قليلاً لماذا كانت مدهشة إلى هذه الدرجة رغبته في أن يتوصل إلى ذلك في يوم من الأيام؟

استمر شوفان لا ينظر إليها وكان صوته رصيناً لا رنين فيه، صوت رجل أصم.

ـ لا حاجة للمحاولة بأن نفهم ذلك. لا يمكننا أن نفهم إلى هذه الدرجة.

ـ هل توجد أشياء أخرى يجب تركها جانباً؟

ـ أعتقد.

اتخذ وجه آن ديباريد تعبيراً كابياً يكاد يكون غبياً وكانت شفتاها رماديتين لشدة شحوبهما وكانتا ترتجفان كما يحدث لشخص يجهش بالبكاء. قالت بصوت هامس:

ـ لم تحاول هي شيئاً لأجل أن تمنعه؟

ـ كلا. لنشرب أيضاً قليلاً من النبيذ.

شربت بجرعات صغيرة دائماً وشرب بدوره. كانت شفتاها ترتجفان أيضاً على القدح. قال.

ـ الزمن.

ـ هل يجب لذلك زمن. زمن طويل؟

ـ أعتقد. طويل. ولكني في الحقيقة لا أعرف شيئاً.

ثم أضاف بصوت منخفض: «لا أعرف شيئاً. مثلك تماماً. لا شيء.»

لم تصل آن ديباريد إلى مرحلة سكب دموعها وبعد أن استيقظت لحظة استعادت صوتاً طبيعياً وقالت:

ـ لن تتكلّم هي أبداً بعد الآن.

ـ بل. في يوم من الأيام، في صباح جميل، ستلاقي فجأة شخصاً تتعرّف عليه ولن يكون بوسعها إلا أن تحييه. أو أنها ستسمع طفلاً يغني وسيكون الطقس جميلاً فتقول: الطقس جميل. وعندئذ يبدأ كل شيء من جديد.

ـ كلا.

ـ سيكون الأمر حسب رغبتك في تصوره. لا أهمية لذلك.

دوّت صفارة الإنذار بصوتها الهائل الذي سُمع بمرح في جميع أنحاء المدينة وحتى بعيداً في الضواحي وفي بعض البلدات المجاورة، بعد أن حملته ريح البحر إلى مسافات شاسعة. تمرّغ الشفق على جدران القاعة وقد ازدادت شقرته عن ذي قبل، وكما يحدث غالباً أثناء الغروب تثبتت السماء نسبياً في تضخم هادئ من السحب بينما تجرّدت الشمس من هالة الغيوم وأرسلت بحرية آخر أشعتها النارية.

كانت صفارة الإنذار هذا المساء لا نهاية لها لكنها توقفت مع ذلك كما يحدث كل مساء.

غمغمت آن ديباريد:

ـ إني خائفة.

فاقترب شوفان من المنضدة وحاول التوصّل إليها ثم عدّل عن ذلك.

ـ لا أستطيع.

عندئذ فعلت ما لم تكن قد استطاعت فعله. تقدّمت نحوه واقتربت منه بحيث أتاحت لشفتيهما أن تتلامسا. بقيت شفتاهما موضوعتين الواحدة على الأخرى لأجل أن يحدث ذلك ووفق نفس الطقوس الجنائزية التي ابتعتهما قبل لحظة يداهما الباردتان المرتجفتان. وقد تمّ ذلك.

كانت تصل منذ الآن من الشوارع المجاورة ضوضاء ملبدة تقطعها نداءات مرحة هادئة. كان مصنع الأسلحة قد فتح أبوابه للثمنمائة رجل الذين يشتغلون فيه ولم يكن بعيداً عن هذا المكان. أضاءت صاحبة المقهى

صف الأنوار الموجودة في أعلى المشرب رغم أنّ الغروب كان متألقاً. وبعد تردد جاءت نحوهما وكانا قد كفّا عن تبادل الكلام وقدّمت لهما بعناية أخيرة نبيذاً آخر من دون أن يطلبا ذلك. ثم وقفت قربهما بعد أن قدّمت لهما النبيذ وكانا لا يزالان سوية مع ذلك. حاولت أن تجد شيئاً تقوله لهما ثم لما لم تجد ابتعدت عنهما. قالت آن ديباريد من جديد:

ـ إني خائفة.

لم يجب شوفان فكرّرت آن ديباريد وهي تكاد تصرخ:

ـ إني خائفة.

استمر شوفان لا يجيب فانثنت آن ديباريد على نفسها حتى كادت جبهتها تلامس المنضدة واستسلمت إلى الخوف. قال شوفان:

ـ سنتوقف إذن عند هذا الحد الذي انتهينا إليه.

وأضاف: «لا بدّ أن هذا يحدث أحياناً».

دخلت جماعة من العمّال كانت قد رأتهما من قبل وقد تحاشوا النظر إليهما. كانوا هم أيضاً مطلعين على جلية الأمر كصاحبة المقهى وكجميع سكان المدينة. ملأت المقهى جوقة من المحادثات المتنوعة أخفى صوتها الحياء. نهضت آن ديباريد من جديد وحاولت مرة أخرى أن تقترب من شوفان فوق المنضدة.

همست:

ـ لعلي لن أفلح في ذلك.

لعله لم يعد يسمع ما تقول. أعادت سترتها إليها وأغلقتها وضيّقتها حول جسدها وعاودها نفس الأنين المتوحش. قالت:

ـ هذا مستحيل.

فسمع شوفان وقال:

ـ دقيقة وسوف نصل إلى ذلك.

انتظرت آن ديباريد هذه الدقيقة ثم حاولت أن تنهض مرة أخرى من كرسيها ونجحت في ذلك ونهضت. كان شوفان ينظر إلى مكان آخر وقد تحاشى الرجال مرة أخرى أن يوجهوا أعينهم نحو هذه المرأة الزانية. كانت قد نهضت فقال شوفان:

ـ بودي أن تكوني ميتة.

فقالت آن ديباريد:

ـ لقد حصل هذا.

دارت آن ديباريد حول كرسيها بشكل لم يعد يلزمها أن تقوم بحركة للجلوس عليه من جديد ثم تراجعت خطوة إلى الوراء واستدارت حول نفسها. ضربت يد شوفان الفضاء وسقطت من جديد على المنضدة لكنها لم تر ذلك. كانت قد غادرت قبل ذلك المجال الذي يوجد فيه. وجدت نفسها تواجه الغروب بعد أن اجتازت جماعة الرجال الذين كانوا عند المشرب، يغمرها الضوء الأحمر الذي كان يعلن نهاية ذلك النهار.

بعد انصرافها رفعت صاحبة المقهى صوت الراديو، فتذمّر بعض الرجال لأنه كان عالياً أكثر مما يرغبون.

مارغريت دوراس



مع "موديراتو كانتابيل" كتبت لنا مرجريت دوراس بدون تحليل نفسي، وصيغ أخلاقية، وأناقة أسلوب مزيفة واحدة من أجمل القصص الكلاسيكية الفرنسية التي قرأناها منذ مدة طويلة. لقد بثّت في هذا الفن الأدبي حياة جديدة: كالغريب لألبير كامو، أو قرار الموت لموريس بلانشو.

هنري هيل

إن ما حاولته مرجريت دوراس ونجحت في تحقيقه هو أنها قدمت لنا كتاباً تظهر فيه الحركات والكلمات علّوها حالاً رغم أنها ، في نفس الوقت، لا تعني إلّا ما تقوله. إننا نفكّر أثناء قراءتها في تلك الكتب الفائقة التي يتلقفنا فيها كل حادث بواسطة تنافذ خفي ليبعدنا عن عالم الأفكار. إننا نفكّر في بروست، وفي ملفيل.

كلود دلمون

هذه القصة الموجزة تمدنا بنفس النتائج والعواقب التي يمكن أن تزودنا بها قصة طويلة تستعرض حياة أجيال متعددة، وعنوانها في الحقيقة مضلل: رَسْلاً وشَدْواً، ربما. لكن "موديراتو كانتابيل" لا تتألف من موسيقى وألحان بقدر تكونها من نور صامت نفّاذ مباغت كنور الفنارات الدوارة. وكما يترك الضوء الحاد في العين أثراً من النار، كذلك تترك مرجريت دوراس في الذهن سحابة صماء من الفسفور الملتهب.

دومينيك أوري

إننا هنا إزاء كاتبة مفكّرة تكتب بصورة عقلية ما يمليه عليها هذا الذي لديه أسباب لا يعرفها العقل.

كلود روا

الانطباع المسيطر لدى قراءتها هو انطباع فن يفلح في إيقاظ انتباهنا ويُبقينا في حالة قلق وانتظار بواسطة أنواع من الصمت والفراغ.

جايتان بيكون



info@azminah.com/ P.O.Box 950252 Amman 11195 Jordan